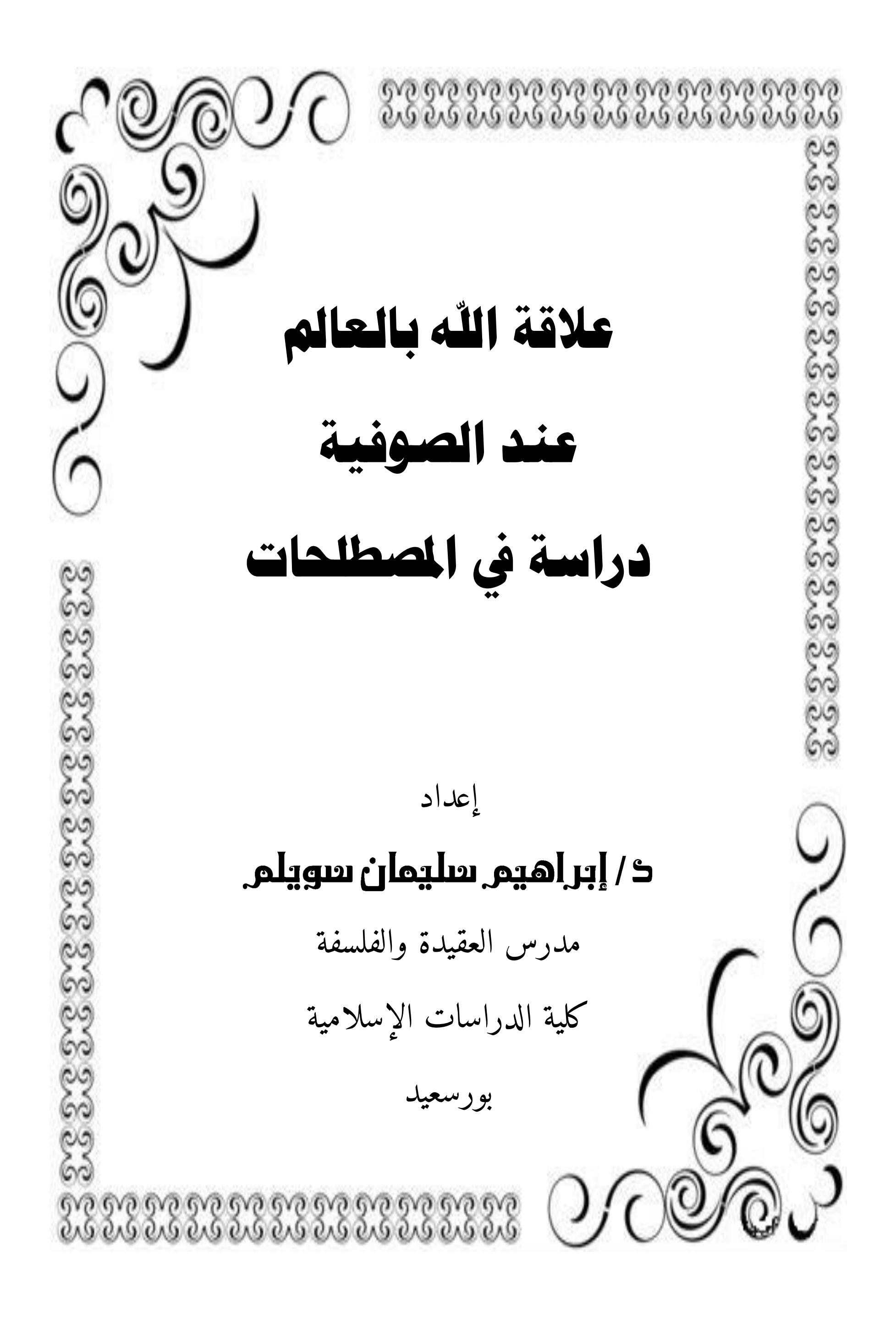


علاقة الله بالعالم

عند الصوفية

دراسة في المصطلحات

إعداد

د / إبراهيم سليمان سويلم

مدرس العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية

بورسعيد

علاقة الله بالعالم عند الصوفية . دراسة في المصطلحات

إبراهيم سليمان سويلم سليمان

مدرس، قسم العقيدة والفلسفة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بورسعيد، جامعة الأزهر ،مصر.

البريد الالكتروني: Ibrahemswelam2592.el@azhar.edu.eg

الملخص :

هذا البحث عن مصطلحات الصوفية التي استعملوها في بحث قضية من قضايا التصوف الهامة، وهي علاقة الله بالعالم، وقد استعمل الصوفية عددًا كبيرًا من المصطلحات للتعبير عن تلك العلاقة، سواء في مرحلة ما قبل الخلق، أو مرحلة الظهور والتعين، أو من حيث التدبير والعناية بالمخلوقات عامة، أو بالمريد السالك في طريق الله بصفة خاصة٠ والمنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج التحليلي الذي يقوم على البحث عن مصطلحات الصوفية في مصادرها الأصلية، وتحليلها من خلال آرائهم، ثم تحليلها مرة أخرى من منظور لغوي وشرعي٠والهدف من هذا البحث هو إثبات الصلة الوثيقة بين مصطلحات الصوفية في تلك القضية، وبين استعمال اللغة والشرع في القرآن والسنة لنفس تلك المصطلحات، مما يؤكد أن الصوفية يستمدون علومهم وأذواقهم، وكذلك مصطلحاتهم من المصدر الإسلامي مباشرة٠ والنتيجة من هذا البحث أن الصوفية قد توافقوا موافقة تامة في استعمال معظم مصطلحاتهم وورودها في اللغة وكذلك القرآن والسنة٠

الكلمات مفتاحية: الله ، العالم ،الصوفية ،المصطلحات ،اللغة ،الشرع٠

Allah's Relation to the World from Sufi's Perspective: A Study in Terminology

Ibrahim Suleiman Suwaylem Suleiman

Department of Creed and Philosophy,Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Port Said, Al-Azhar University, Egypt.

Email: dkibrahimswelam@gmail.com

Abstract:

The present study revolves around the Sufi's terminology used in investigating an important issue in Sufism which is Allah's relation to the world. Sufists use a large number of terms to express this relation in pre-creation stage, appearance and determination stage, arrangement and care of creatures in general, or in the apprentice who walks a spiritual path to Allah in particular. The current study adopts analytical approach that is based on investigating Sufi's terminologies in their authentic sources, analyzing them from Sufi's perspective, and then analyzing these terms again from a linguistic and legal perspective.

This study aims at proving the strong association between Sufi's terminologies in this issue and the use of the same terminologies in Arabic language and Sharia in Quran and Sunnah. This asserts that Sufism draws their sciences, taste, and terminologies from a direct Islamic source.

The present study concludes that Sufists entirely agree with language, Quran and Sunnah on the use of most of their terms.

Keywords: Allah – World- Sufism – terminologies – language – Sharia

مقدمة

الحمـد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام علـى أشـرف الخلـق وسـيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين: وبعد،

فـإن التصـوف مـن العلـوم الأصـيلة فـي الإسـلام، وهـو العلـم المعنـي بالجانب الروحي والأخلاقي لدى المسلمين، وقد ظهر هذا العلم في مرحلته الأولى ـ وأعني بها مرحلة الزهد ـ في صدر الإسلام حيث نطقت آيات القرآن الكريم ـ وهو المصدر الأول للإسلام ـ بهذا الزهد في مواضع كثيرة، ثم جاءت السنة المطهرة ـ وهي المصدر الثاني للإسلام ـ تهتم بهذا الزهد تطبيقًا وفعلاً من النبي ﷺ وكذلك أقوالاً وأوامر منه للمسلمين.

ثم استجاب المسلمون الأوائل لهذه الأوامر واقتدوا بالنبي ﷺ في زهده، فكانـت أفعـالهم وأقـوالهم اقتـداءً بـالنبي ﷺ مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أخـرى أصـبحت مصـدرًا اسـتقى منـه أربـاب الحيـاة الروحيـة فيمـا بعـد بجانب القرآن والسنة ـ أحوالهم ومقاماتهم وأقوالهم.

ثم جاءت مرحلة التصوف التي أصبح التصوف فيها علمًا مستقلاً كسائر العلوم التي استقلت بموضوعها في فترات لاحقة من تاريخ الإسلام.

وفي تلك المرحلة تطور التصوف فأصبح علمًا له موضوعه وأعلامه ومؤلفاته، وكذلك مصطلحاته.

وقد كانت تلك المصطلحات من أبرز ما يميز التصوف الإسلامي في مراحله المختلفة، وهذا أمر مشهور في كل علم حيث إن لكل علم موضوعًا خاصًا بـه ومصـطلحات خاصـة بـه أيضًـا، وذلـك أن الأفكـار الداخليـة والتصورات الذهنية لا يمكن أن تظل حبيسة أذهان أصحابها بل لابد أن

تبرز من الذهن إلى الخارج في صورة ألفاظ ومصطلحات يعبر بها أصحاب كل علم عن علمهم لأنفسهم ولغيرهم؛ وذلك لأن أهم مهمات العلوم معرفة الألفاظ والمصطلحات التي يدور حولها هذا العلم.

وبالنسبة لعلم التصوف فإنه أغنى العلوم الإسلامية بالألفاظ والمصطلحات التي يعبر بها أربابه وأقطابه عن أفكارهم ومواجيدهم وأحوالهم وأذواقهم، بحيث ترك لنا الصوفية تراثًا ضخمًا من المصطلحات التي امتلأت بها بطون كتبهم عامة وتخصصت فيها كثير من الكتب التي عنيت بجمع المصطلح الصوفي وبيانه وشرحه لأهل الطريق أولاً ثم لغيرهم ثانيًا.

وقد اتسم المصطلح الصوفي بخصائص معينة سيكشف عنها البحث ولكنها في عمومها متوافقة مع الإسلام بحيث يمكن أن نقول إن معظم مصطلحات التصوف إسلامية خالصة خاصة في موضوع دراستنا، وهو علاقة الله بالعالم حيث وجدنا جميع مصطلحات هذا الموضوع في مراحله كلها سواء ما قبل الخلق، أو ما بعد الخلق، أو في مرحلة التدبير والعناية ـ عامة ـ ومرحلة التدبير بالمريد السالك ـ خاصة ـ كلها ذات صبغة إسلامية خالصة، ما منها من مصطلح إلا ويمت بصلة قوية إلى القرآن الكريم والأحاديث النبوية وبالتالي نجد له سندًا قويًا من اللغة العربية.

وقد جاء هذا البحث بعنوان "علاقة الله بالعالم عند الصوفية دراسة في المصطلحات".

وقد قسمت هذا البحث إلى أربعة مباحث:

المبحث الأول: تناول تعريف المصطلح ـ عامة ـ والمصطلح الصوفي خاصة ومراحل ظهوره وأهم خصائصه.

المبحـث الثـاني: وقد تناول المصطلحات الخاصة بمرحلة ما قبل الخلق حيث كان الله ولم يكن شيء معه، أي أنه ذات أحدية مطلقة لا خلق معه.

المبحـث الثالـث: مرحلة ما بعد الخلق وفيها تناولنا المصطلحات الخاصة بظهور المخلوقات المعبر عنها عندهم بـ: التعين.

المبحث الرابع: المصطلحات الخاصة بالتدبير والعناية، وقد انقسم هذا المبحث إلى عنوانين رئيسين:

الأول: التدبير والعناية بالعالم عامة.

الثاني: التدبير والعناية بالمريد أو السالك في طريق الله خاصة.

وقد اشتمل كل مبحث على مجموعة من المصطلحات قمت بذكر أهمها لا بذكرها كلها؛ لأنها كثيرة جدًا لا يمكن أن يشملها بحث واحد.

منهج البحث:

وقد كان منهجي في هذه الدراسة قائمًا على ما يلي:

أولاً: أقوم بذكر المصطلح كما هو عند الصوفية في كتبهم وماذا قالوا عنه وكيف بينوه وشرحوه.

ثانيًا: أقوم بعرض هذا المصطلح بمفهومه عند الصوفية على اللغة العربية لأبين مدى قربه أو بعده من اللغة ليظهر هل كان الصوفية ملتزمين باللغة العربية التي هي لغة القرآن والسنة أم خالفوها.

ثالثًا: أقوم بعرض هذا المصطلح على المصدرين الأساسيين للإسلام ـ أعني الكتاب والسنة ـ لأبين مدى قرب المصطلح أو بعده من آيات القرآن

الكريم وأحاديث النبي ﷺ ليظهر لنا هل كان الصوفية حقا ملتزمين بالقرآن والسنة أفكارًا وألفاظًا أم بعيدين عنهما ٠

رابـعًا: قمت باستقاء المصطلحات الصوفية من مصادرها الأصلية، وبالرجوع إلى كلام القوم في مصادرهم المعتمدة بادئًا من أقدمها إلى أحدثها ٠

وقد تحريت في ذلك كله الموضوعية وتوخيت الصواب قدر الإمكان، فما كان من توفيق فهو من الله وحده لا شريك له الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وإن كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان ومن طبيعة العمل البشري الذي لابد أن يعتريه القصور فالكمال المطلق هو لله وحده ٠

المبحث الأول

المصطلح الصوفي

تعريف المصطلح عمومًا: يعرف الجرجاني المصطلح أو الاصطلاح بعدة تعريفات متقاربة فيقول: (الاصطلاح عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عنه موضعه الأول وإخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما٠

وقيل الاصطلاح هو: اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى٠

وقيل الاصطلاح: إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى معنى آخر لبيان المراد وقيل الاصطلاح: لفظ معين بين قوم معينين)[1]٠

وهذه التعريفات رغم اختلاف ألفاظها إلا أنها متقاربة المعنى بشدة، فهي تشير إلى أن المصطلح لفظ اتفق أهل علم معين على استخدامه في معنى معين سواء بقي هذا اللفظ على وضعه اللغوي الأصلي أو نقل إلى معنى جديد، بشرط وجود علاقة بين المعنى الأصلي والمعنى الجديد المستعمل فيه في عرف ذلك العلم المعين٠

والمهم أن يكون الغرض من الاصطلاح هو بيان المعنى٠

فإذا اتفق قوم معينون أو طائفة مخصوصة على استعمال لفظ ما في معنى معين فإن هذا اللفظ يسمى في عرفهم مصطلحًا٠

---

(١) الجرجاني: التعريفات صـ٤٤ . الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م . دار الكتب العلمية . لبنان٠

ولابد لهذا المصطلح أن يكون:

(أ - شائعًا بين أهل الفن الواحد شيوعًا تامًا ٠

ب - أن يكون مقبولاً قبولاً عامًا ٠

ج - أن يستعمل داخل العلم) [١]٠

ولكن اللفظ إذا نُقل من معناه اللغوي الحقيقي ليستعمل في حقل دلالي آخر في علم من العلوم لابد وأن يتسم بشروط تصحح هذا النقل وهي:

أ - وجود علاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي٠

ب - أن يقره فريق من العلماء من أهل ذلك العلم ليصبح مقبولاً لديهم٠

ج - أن يتعلق معناه الجديد بموضوع العلم الموضوع هو فيه[٢]٠

وبناءً على ذلك يعرف بطرس البستاني الاصطلاح بأنه: (العرف الخاص وهو عبارة عن اتفاق القوم على وضع الشيء، وقيل هو إخراج الشيء عن المعنى اللغوي إلى معنى آخر لبيان المراد منه وذلك لمناسبة بينهما كالعموم والخصوص، أو لمشاركتهما في أمر أو مشابهتهما في وصف) [٣]٠

فإذا ما نظرنا إلى المصطلح الصوفي في ضوء ما سبق استطعنا أن نعرفه بأنه: عبارة عن تلك الألفاظ التي اختارها الصوفية بدقة وعناية

---

(١) د. علي جمعة: المصطلح الأصولي ومشكلة المفاهيم صـ١٥ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ. ١٩٩٦م. المعهد العالمي للفكر الإسلامي٠

(٢) نفس المرجع صـ١٩ ٠

(٣) البستاني: دائرة المعارف جـ٣ صـ٥٧ ٠

شديدتين للتعبير عن أفكارهم ومواجيدهم وأذواقهم لبيان معانيها لأنفسهم وأهل طريقتهم أولاً ثم إلى سائر من سواهم ثانيا٠

وهذه الألفاظ التي اتفق عليها القوم قد شاع استعمالها بينهم سلفًا وخلفًا، وهي في غالبها الأعم صحيحة الاستعمال من الجهتين اللغوية والشرعية كما سنطلع عليه بعد قليل في سطور هذا البحث٠

ظهور المصطلح الصوفي وتطوره:

يذهب الدكتور رفيق العجم إلى أن المصطلح الصوفي قد مر بأربع مراحل رئيسة:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة الظهور والنشوء، وفيها كان المصطلح الصوفي محصور المعاني والأغراض يدور حول الزهد والحب والمجاهدة والسلوك ورعاية حقوق الله، وتمتد هذه المرحلة زهاء قرن ونيف تبدأ مع بداية القرن الثاني للهجرة٠

المرحلة الثانية: تحقق في هذه المرحلة تبلور التصوف ونضجه وتطرق مصطلحاته ومعانيه لمجالات فلسفية وكشفية، فتبلور الشطح وما حمله من وجد فاض به اللسان وعبّر عن آفاق ومشاعر بألفاظ عذرها البعض واستهجنها البعض الآخر لغربتها عن الألفاظ المعتادة في الدين القويم، كما حدثت مفاهيم فلسفية صوفية مثل الحلول والاتحاد والأنا والهو ووحدة الوجود ونحوها٠

وقد امتدت هذه المرحلة تقريبًا إلى نهاية القرن السادس بعد أن بدأت من أواخر القرن الثالث الهجري٠

المرحلة الثالثة: اكتمل في هذه المرحلة زاد المصطلح الصوفي نسبيًا، وقد زاده ابن عربي وأغناه في هذه الحقبة وقام بعملية جمعه ووعاه، وتتابعت عملية الجمع والوعي لدى القاشاني، وفي مرحلة الكمال هذه حصل ظهور المصنفات الجمَّاعة، وقد امتدت هذه المرحلة وصولاً إلى القرن التاسع الهجري.

المرحلة الرابعة: تتسم هذه المرحلة بجفاف الإبداع في الاصطلاح نسبياً وتكرار ما سبق وشرحه، وتعتمد هذه المرحلة على استحداث مصطلحات تتعلق بالطرق والفرق وتسمياتها، وتبلغ هذه المرحلة مطالع القرن الخامس عشر الهجري[١].

ويتضح لنا من عرض هذه المراحل أن المصطلح الصوفي قد بدأ ونشأ مع بداية القرن الثاني الهجري.

ولكن أستاذنا الدكتور عبدالله الشاذلي يرجع نشأة المصطلح الصوفي إلى أبعد من ذلك، حيث يرد أصول المصطلحات الصوفية إلى ظهور الإسلام ذاته، أي إلى مصدريه الأساسيين، وهما الكتاب والسنة، ثم استعمال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ثم التابعون ثم الصوفية بعد ذلك.

يقول الدكتور الشاذلي عن المصطلحات الصوفية: (الحقيقة شاهدة على أنها وجدت في الكتاب والسنة أولاً، ثم استعملها الصحابة والتابعون وتابعوهم مع إضافة، ثم تلقفها الصوفية بالترتيب والشرح مع الزيادة، أي أن

---

(١) رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي . المقدمة: الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩م . مكتبة لبنان.

الصوفية في القرن الثاني والثالث قد وجدوا كثيرًا من أمهات المصطلحات الروحية تحت أيديهم فاستعملوها في مواعظهم وتأليفهم)[1].

والواقع أنني أميل بشدة إلى ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور عبدالله الشاذلي باعتبار أن هذا العلم هو علم إسلامي أصيل، فلابد أن يكون استمداده من أصول الإسلام في معانيه ومصطلحاته، وسيظهر من خلال بحثنا هذا ـ إن شاء الله ـ أن معظم مصطلحات الصوفية هي ألفاظ قرآنية ونبوية في المقام الأول.

خصائص المصطلح الصوفي:

كما أن علم التصوف مميز عن غيره من العلوم الشرعية الأخرى؛ فإن ألفاظه ومصطلحاته لابد وأن تتميز عن مصطلحات العلوم الأخرى؛ ولذلك وجدنا مصطلحات علم التصوف لها خصائص معينة يمكن ذكر أهمها فيما يلي:

١ - اعتمادها على القرآن والسنة وصحيح اللغة العربية:

وهذا أمر يبدو واضحًا عند النظرة الأولى لمصطلحات التصوف الإسلامي، فهي معتمدة على ألفاظ القرآن الكريم، وكذلك ألفاظ الحديث الوارد عن النبي ﷺ وكذلك صحيح اللغة وفصيحها لا وحشيّها ولا شاذها.

ولا أكون مبالغًا إذا قلت: إن مصطلحات التصوف الإسلامي هي أقرب مصطلحات العلوم الإسلامية إلى القرآن والسنة واللغة.

(١) أستاذنا الدكتور عبدالله الشاذلي: التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ٢ صـ١١٦ . دار الهداية للطباعة والنشر بدون تاريخ.

حيث نقلت المصطلحات من آيات القرآن أو أحاديث النبي ﷺ مباشرة إلى الساحة الصوفية بنفس الألفاظ ولنفس المعاني .

فإذا نظرنا إلى مصطلح الأحدية مثلاً فهو لفظ قرآني صميم، وكذلك لفظ المدد فهو مصطلح صوفي لكنه في الأصل لفظ قرآني، وقد نقله الصوفية ـ لفظًا ومعنى ـ إلى مصطلحاتهم وكذلك لفظ الأمر والتأنيس والسابقة والفتق وأم الكتاب، إلى آخر هذه المصطلحات التي سيأتي تفصيلها بعد قليل .

ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن الصوفية كان لهم اهتمام خاص بالقرآن والسنة حفظًا ودراسةً وفهمًا، وبما أن القرآن والسنة عربيان فكان لزامًا على الصوفي أن يلم باللسان العربي دراسةً وفهمًا .

فالقرآن الكريم له منزلته الكبيرة عند الصوفية الذين أثر عن أقطابهم أنهم كانوا يستظهرونه .

فيروى عن سهل بن عبدالله أنه قال: (.... فمضيت إلى الكُتَّاب وحفظت القرآن وأنا ابن ست سنين) [1] وروى أبوبكر العطوي قال: (كنت عند الجنيد حين مات ختم القرآن ثم ابتدأ من البقرة وقرأ سبعين آية ثم مات ـ رحمه الله .) [2] .

---

(١) القشيري: الرسالة القشيرية جـ١ صـ٨٠ تحقيق د/ عبدالحليم محمود ود/محمود بن الشريف . دار المعارف . القاهرة . بدون تاريخ .

وراجع رسائل ابن عربي جـ١ صـ٨٦ تحقيق/ سعيد عبدالفتاح . الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٦م .

(٢) الرسالة القشيرية صـ١٠٤ .

وكانوا يشترطون العلم بالقرآن في أوائل الطريق فيذكر الكلاباذي أن أول ما يطلب من العبد هو (الاجتهاد في تعلم التوحيد والمعرفة على طريق الكتاب والسنة) [١].

ويذكر الكلاباذي أيضًا عن أعلام التصوف الذين ذكرهم في التعرف أنهم (سمعوا الحديث وجمعوا الفقه واللغة والكلام وعلم القرآن)[٢].

بل كانوا يعاتبون إذا قصروا في قراءة القرآن، يذكر الكلاباذي عن يوسف بن الحسين قال: (كان عندنا شاب من أهل الإرادة أقبل على الحديث وقصر في قراءة القرآن فأُتى في منامه فقيل له: إن لم تكن بي جافيًا فلم هجرت كتابي، أما تدبرت ما فيه من لطيف خطابي)[٣].

بل كان الصوفية يجعلون القرآن والسنة هما المعيار لقياس علمهم والحكم عليه، فيذكر القشيري عن السري أنه قال: (التصوف اسم لثلاث معاني: وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله) [٤].

---

(١) الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف صـ٨٦ . تحقيق/ محمود بن النواوي . الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٢م . المكتبة الأزهرية للتراث.

(٢) نفسه صـ٣٣ .

(٣) نفس المصدر صـ١٥٤ .

(٤) الرسالة القشيرية جـ١ صـ٤٦ .

ويذكر الجنيد عن أبي سليمان الداراني أنه قال: (ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيامًا فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة)[1].

وروى عن الجنيد أنه قال: (مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة)[2].

وقال الجنيد أيضًا: (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة) [3] وقال أيضا: (علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ)[4].

فهذه النصوص تدل على الأهمية البالغة التي للقرآن والسنة عند الصوفية، وأنهما أساس طريقهم، وقاعدة علمهم، فلا مانع أن يكونا أيضًا معين ألفاظهم ومصدر مصطلحاتهم.

ولذلك وجدنا الصوفية حين يذكرون مصطلحاتهم كانوا يحرصون حرصًا شديدًا على بيان صلتها بآيات القرآن الكريم أو أحاديث النبي ﷺ فيذكرون المصطلح، ويقولون: ولعل هذا هو المعنى بقوله ـ تعالى ـ كذا أو لعل هذا هو الذي ذكره النبي ﷺ حين قال كذا[5].

---

(١) نفس المصدر جـ١ صـ٦١ .

(٢) نفسه جـ١ صـ٧٩ .

(٣) نفس المصدر جـ١ صـ٧٩ .

(٤) نفسه جـ١ صـ٧٩ .

(٥) راجع على سبيل المثال القاشاني: لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام حيث ذكر مصطلح السر وقال وهو المنبه إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ جـ٢

==

بالإضافة إلى ذلك فإن القرآن والسنة باعتبارهما نزلا بلسان عربي مبين، فقد وجدنا الصوفية يهتمون باللغة العربية اهتمامًا كبيرًا.

وهذا أمر مشهور في العلوم الإسلامية كافة حتى قال الزمخشري عن أصحاب العلوم المختلفة وحاجتهم إلى تعلم اللغة (وذلك أنهم لا يجدون علمًا من العلوم الإسلامية، فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بيِّن لا يدفع، ومكشوف لا يُتَقَنَّع)[1].

ويشير مجد الدين الفيروزآبادي إلى مثل هذا أيضًا فيقول: (وجب على روّام العلم وطلاب الأثر أن يجعلوا أعظم اجتهادهم واعتمادهم، وأن يصرفوا جل عنايتهم في ارتيادهم إلى علم اللغة والمعرفة بوجوهها والوقوف على مثلها ورسومها) [2].

والواقع أن اهتمام العلماء في مختلف العلوم الإسلامية بإتقان اللغة راجع إلى أن أوامر الشرع قد وردت توجه إلى هذا الاهتمام.

==

صـ١٤ ويذكر في مصطلح السابقة ويشرحه ويقول وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ جـ٢ صـ٧ ويذكر مصطلح الكنز الخفي وبشرحه ويقول وهو الذي أخبر عنه الرسول ﷺ عن ربه في قوله: (كنت كنزًا مخفيا) جـ٢ صـ٢٤٩.

(١) الزمخشري: المفصل في صنعة الإعراب صـ١٨ تحقيق د. علي بوملحم. الطبعة الأولى ١٩٩٣م. مكتبة الهلال. بيروت.

(٢) الفيروزآبادي: القاموس المحيط جـ١ صـ٢ مؤسسة الرسالة. بيروت. بدون تاريخ.

فالقرآن الكريم نزل بلسان العرب ليتدبروه وليعقلوه ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[٢] وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣].

وكذلك من أنزل عليه القرآن وهو سيدنا محمد ﷺ فقد كان عربيًا أيضًا بل هو (أفصح من نطق بالضاد، وكان الذين بعث فيهم عربا أيضًا فجرى الخطاب على معتادهم في لسانهم، فليس فيه شيء من الألفاظ أو المعاني إلا وهو جار على ما اعتادوه) [٤].

وبناءً على ذلك فإن الصوفية باعتبارهم طائفة من المسلمين حافظين للقرآن، وعالمين بالحديث، فلا ريب أن تأتي ألفاظهم في المقام الأول لغوية صحيحة، عربية فصيحة، فليس في مصطلحاتهم ألفاظ أعجمية، وليس فيها ما هو غريب أو شاذ أو وحشيّ في كلام العرب وخاصة في المصطلحات التي بحثناها في الصفحات التالية.

٢ - **الكثرة والاستيعاب**:

لقد لاحظنا من خلال بحثنا في مصطلحات التصوف أن الصوفية يملكون ثروة ضخمة من الألفاظ التي يعبرون بها عن ما يدور في نفوسهم، والتي ظهرت لنا في صورة مصطلحات خاصة بهم.

---

(١) سورة يوسف آية ٢ .

(٢) سورة الشعراء آية ١٩٥ .

(٣) سورة النحل آية ٤٤ .

(٤) أبوإسحاق الشاطبي: الاعتصام جـ٢ صـ٥٠ . الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٩م.

فهي مصطلحات كثيرة من ناحية الكم، وهي مستوعبة لأفكارهم من ناحية الكيف، فأما عن الكثرة فيكفينا نظرة واحدة للكتب المعنية بالمصطلح الصوفي لنجد عشرات، لا بل مئات المصطلحات التي تدور على ألسنة الصوفية تعبيرًا عن أفكارهم، وشرحًا لأحوالهم ومقاماتهم، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد لاحظنا أن الصوفية قد يعبرون عن المعنى الواحد بمصطلحات كثيرة، فيذكرون مصطلحًا معبرًا عن معنى معين، ثم يقولون وقريب منه مصطلح كذا وكذا، فيذكرون مصطلحات قريبة أو مترادفة لشرح معنى معين.

وأما الاستيعاب فإنني أعني به أن هذه المصطلحات بلغت من الكثرة بحيث استوعبت جميع ما يجول في ذهن الصوفي، فما من حال ولا مقام ولا منزل ولا فكرة ولا معنى إلا ويجد الصوفي له مصطلحًا أو مصطلحات معبرة عنه، حتى الشطح والأفكار التي تغلب الصوفي يجد لها مصطلحات يظهرها فيها.

٣ - سهولة الفهم:

إن المصطلح الصوفي ـ في أصله ـ لفظ لغوي عربي في الغالب الأعم، وهو بالإضافة إلى ذلك راجع إلى القرآن أو السنة، فلا ريب أن يكون سهل الفهم ميسور الإدراك لدى سامعه، ولا ننكر أن هناك من المصطلحات الصوفية ما يصعب فهمها لغير أرباب الطريق، لكن هذا يصدق على عدد قليل من المصطلحات التي نُقلت من الفلسفة والتي أُغرم بها قوم من الصوفية الذين خلطوا التصوف بالفلسفة فأدخلوا بعض المصطلحات التي لها صبغة فلسفية أو منطقية، كالفهوانية والهُوية والحد والعموم والخصوص

والورقاء[1]، وهي على كل حال قليلة جدًا إذا قيست بهذا الكم الهائل من مصطلحات التصوف.

ومن العجيب أن يأتي الاعتراف بسهولة فهم هذه المصطلحات الصوفية من متصوف فلسفي يشاع دائمًا أن ألفاظه صعبة الفهم عسيرة الإدراك، وأعني به الشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربي الذي يشير إلى أن المصطلحات في العلوم الأخرى قد لا يدركها إلا أصحاب العلم فقط إلا مصطلحات التصوف فإنه بمجرد مجالستهم يستطيع الإنسان فهم مصطلحاتهم.

يقول ابن عربي: (من أعجب الأشياء في أصحاب هذه الطريقة وفي اصطلاحهم أنه ما من طائفة من الطوائف تحمل علمًا سواء من المنطقيين والنحاة وأهل الهندسة والحساب والفلاسفة والمتكلمين، إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إلا بتوقيف منهم، إلا أهل الطريق خاصة؛ فإن المريد الصادق إذا دخل طريقهم وما عنده خبر بما اصطلحوا عليه وجلس معهم وسمع ما يتكلمون به من الإشارات فهم جميع ما تكلموا به، حتى كأنه الواضع للاصطلاح، ويشاركهم في الخوض في هذا العلم، ولا يستغرب هو ذلك في نفسه بل يجد علم ذلك ضروريًا لا يستطيع دفعه) [2].

هذا الكلام من ابن عربي يصدق على الغالب الأكثر من مصطلحات التصوف، لكن الحقيقة أن هناك ألفاظًا صعبة ومصطلحات لا تفهم في

(١) راجع: التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ٢ صـ١٣٠ .

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية جـ٢ صـ٥٨ الباب رقم ٥٤ .



بادئ الأمر، وقد تنبه الصوفية لهذه الحقيقة فقاموا بشرح تلك المصطلحات وتفسيرها حتى غدت سهلة يمكن فهمها.

٤ - **اقتصارها على الطريق الصوفي**:

بمعنى أن تلك المصطلحات السائرة في الميدان الصوفي والدائرة على ألسنة أربابه يتعذر نقلها إلى ميدان علمي آخر، بحيث تستخدم كمصطلحات لهذا العلم الآخر، فهي مصطلحات للتصوف وحده.

ولعل هذا قد لفت أنظار بعض أرباب العلوم الأخرى فاستفهموا عنه من الصوفية الذين أجابوهم بأن هذه المصطلحات خاصة بالصوفية لغيرتهم على علمهم ورغبتهم في ألا يشاع في غير طائفتهم.

يـذكر أبـوبكر الكلابـاذي هـذا فيقـول: (قـال بعـض المتكلمـين لأبـي العباس بن عطاء: ما بالكم أيها المتصوفة قد اشتققتم ألفاظًا أغربتم بها عن السـامعين، وخـرجتم عـن اللسـان المعتـاد، هـل هـذا إلا طلبًـا للتمويـه أو سـتر لعوار المذهب؟

فقـال أبوالعبـاس: مـا فعلنـا ذلـك إلا لغيرتنـا عليـه لعزتـه علينـا، كـيلا يشربها غير طائفتنا ثم اندفع يقول:

أحســن مــا أظهــره ونظهــره ∴ بــادي حــق للقلــوب نشــعره

يخبرنــي عنــي وعنــه أخبــره ∴ أكســوه مــن رونقــه مــا يســتره

عـن جاهـل لا يسـتطيع ينشـره ∴ يفســد معنــاه إذا مــا يعبــره

فـلا يطيـق اللفـظ بـل لا يعشـره ∴ ثــم يــوافي غيــره فيخبــره

فيظهــر الجهــل وتبــدو زمــره ∴ ويــدرس العلــمُ ويعفــوا أثــره[1]

فالصوفية يغارون على علمهم فلا يبيحون لغيرهم نقل مصطلحاتهم حتى لا تفهم على غير معناها فيلحق الضرر بطريق التصوف خاصة من جاهل لا يعلم حقيقة الألفاظ ولا طبيعة المصطلحات٠

وسوف تظهر لنا هذه السمات السابقة واضحة جلية في ثنايا هذا البحث ونحن نتناول تلك المصطلحات٠

(١) الكلاباذي: التعرف صـ١٠٥ ٠

المبحث الثاني: مصطلحات ما قبل الخلق

(اللّه ذاتاً مطلقة عن كل تعلق)

ونعني بها تلك المصطلحات التي استعملها الصوفية للدلالة على ذات الله ــ تعالى ــ مجردة عن كل نسبة إثباتًا أو نفيًا، كأن هذه المصطلحات تتحدث عن الذات فقط.

والواقع أن هذه المصطلحات قد وردت بكثرة عند الصوفية، ومن أهم هذه المصطلحات ما يلي:

١ - **مصطلح الأحدية**: ومعناه عند الصوفية: (اعتبار الذات من حيث لا نسبة بينها وبين شيء أصلاً ولا شيء إلى الذات نسبة أصلاً)[١].

ويذكر الجيلي أن الأحدية: (عبارة عن مجلي الذات ليس للأسماء ولا للصفات ولا لشيء من مؤثراتها فيه ظهور، فهي اسم لصرافة الذات المجردة عن الاعتبارات الحَقِّية والخَلْقية)[٢].

٢ - **أبطن كل باطن وبطون**: وهو من المصطلحات المعبَّر بها عن هـذه المرحلـة، والصـوفية (يعنـون بـه غيـب الهويـة المقدسـة، فـإن الله . تعالى ـ كان ولا شيء معه فكيف يظهر لغير شيء)[٣].

(١) القاشاني: لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام جـ١ صـ١٧٠ بتحقيق/ سعيد عبدالفتاح . الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة.

(٢) الجيلي: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل صـ٤٧ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ . ١٩٩٧م . دار الكتب العلمية . بيروت.

(٣) القاشاني: لطائف الإعلام، جـ١ صـ١٥٥ .

والواضح من هذا أنهم يقصدون به أن الله ـ تعالى ـ كان قبل خلق مخلوقاته باطنًا؛ لأنه لا يصح أن يظهر لغير شيء .

ولكن هذا الوصف مستمر الإطلاق على الله ـ تعالى ـ حتى بعد ظهور المخلوقات وإيجادها، ويفسر الصوفية ذلك بقولهم: (وهو الآن على ما عليه كان؛ فلهذا لا يدركه غيره، وإنما هو الآن على ما عليه كان؛ لأن ما يفرض غير إله أو سواه لا يصح استقلاله بشيئيته ليكون شيئًا بنفسه فضلاً عن أن يكون مدركًا بها أو لها، فالشيء حقيقة إنما هو الله ـ تعالى ـ فلهذا لا تدركه الأبصار ولا تحيط به البصائر ولا تناله الأفكار؛ لأن الحقائق لا تحققه وهو يتحققها؛ لأنها لا هوية لها غير هويته)[١] .

٣ - **التوحيد القائم بالأزل:** (ويعنون به توحيد الحق لنفسه وهو عبارة عن تعقل الحق لنفسه وإدراكه لها من حيث تعينه ومعلوم أن هذا مما لا يصح لأحد غير الله إدراكه، ولهذا كان هو التوحيد الذي اختصه الحق لنفسه؛ لأنه لا يصح أن يوجده به غيره، فإن حضرته حضرة جمع لا تقبل تفرقة السوى لتنافيها، وإليه أشار سيدي عمر بقوله:

ولو أنني وحدت أَلْحَدْت وانسلخت ∴ عن أي جمعي مشركًا بي صنعتي)[٢]

٤ - **غيب الهوية:** ويقول الصوفية عن هذا المصطلح إنه (عبارة عن إطلاق الحق باعتبار اللا تعين)[٣] .

---

(١) القاشاني: لطائف الأعلام، جـ١ صـ١٥٨ .

(٢) القاشاني: لطائف الأعلام جـ١ صـ٣٦٧ .

(٣) لطائف الأعلام جـ٢ صـ١٨١، وراجع الجرجاني: التعريفات صـ٢٠٩ .

ويعرف النقشبندي مصطلحًا قريبًا من هذا وهو غيب مكنون فيقول: (الغيب المكنون والغيب المصون هو السر الذاتي وكنهه الذي لا يعرفه إلا هو؛ ولهذا كان مصونًا عن الأغيار مكنونًا عن العقول والأبصار) [1].

٥ - **الكنـــز المخفـــي**: والصوفية يشيرون بهذا المصطلح (إلى كنه الغيب وإطلاق الذات الأقدس وباطن الهوية الأزلية كما جاء في الكلمات القدسية التي أخبر بها رسول الله ﷺ عن ربه أنه يقول: **[كنت كنزًا مخفيًا]** فكأن الكنز عبارة عن غيب مكنون وسر مستتر مصون مخزون مشتمل على جواهر عظيمة الجدوى هي أسماء الذات التي هي أنفس نفائس حقائق الأسماء التي منها ما يستأثر به في مكنون الغيب عنده فلا يعلمها إلا هو)[2].

٦ - **أم الكتاب**: (هي عبارة عن ماهية كنه الذات المعبر عنها من بعض وجوهها بماهيات الحقائق التي لا يطلق عليها اسم ولا نعت ولا وصف ولا وجود ولا عدم ولا حق ولا خلق، وكانت ماهية الكنه أم الكتاب لأن الوجود مندرج فيها اندراج الحروف في الدواة فلا يطلق على الدواة باسم شيء من أسماء الحروف سواء كانت الحروف مهملة أو معجمة)[3].

وهكذا دارت هذه المصطلحات في تلك المرحلة السابقة حول انفراد ذات الحق ــ تعالى ــ بالوجود وغيبه عن الخلق حيث لا خلق أصلاً ولا

---

(١) الكمشخانوي النقشبندي: جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وكلمات الصوفية صـ١٦٠ تحقيق طه عبدالرؤف سعد . الطبعة الأولى ٢٠١٥م/ ١٤٣٦هـ . المكتبة الأزهرية للتراث.

(٢) نفسه جـ٢ صـ٢٤٩ .

(٣) الجيلي: الإنسان الكامل صـ١٠٣ .

وجود لشيءٍ معه ــ سبحانه وتعالى ــ فليس موجودًا آنذاك إلا هو ذاتًا أحدية.

والواقع أنه من حقنا أن ننظر في مصطلحات تلك المرحلة لنعرضها على اللغة ثم على القرآن والسنة لنرى مدى قرب أو بعد تلك المصطلحات التي استعملها الصوفية من الشرع واللغة.

١ - مصطلح الأحد من منظور لغوي: قال صاحب لسان العرب: (الأحد هو الفرد الذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر، وهو اسم بُني لنفي ما يذكر معه من العدد)[١].

ويقول الآلوسي: (الأحد: اسم لمن لا يشاركه شيء في ذاته، أي أن الأحد هو الذات وحدها بلا اعتبار كثرة فيها، فأثبت له الأحدية التي هي الغنى عن كل ما عداه، وذلك من حيث عينه وذاته من غير اعتبار أمر آخر)[٢].

وإذا كان لفظ الأحد بهذا المعنى فإن اللغويين يؤكدون على أنه لا يصح إطلاقه إلا على الله ــ تعالى ــ، يقول الأزهري: (وأما اسم الله ــ جل ثناؤه ــ أحد: فإنه لا يوصف شيء بالأحدية غيره، لا يقال رجل أحد ولا درهم أحد، لأن أحدًا صفة من صفات الله ــ تعالى ــ التي استأثر بها، فلا يشركه

---

(١) ابن منظور: لسان العرب جـ٣ صـ٧٠ . الطبعة الثالثة سنة ١٤١٤هـ . دار صادر . بيروت.

(٢) الألوسي: روح المعاني جـ١٠ صـ٥٣٦ .

فيها شيء، وليس كقولك الله واحد وهذا شيء واحد، لأنه لا يقال شيء أحد)[1].

وقال ابن كثير: (لا يطلق لفظ أحد في الإثبات إلا على الله . عزوجل ـ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله)[2].

ويتضح لنا مما سبق أن هناك فرقًا بين لفظي الواحد والأحد فالأحد لا يطلق إلا عليه ـ تعالى ـ دون غيره والواحد قد يطلق عليه وعلى غيره.

ويفرق أبوهلال العسكري بين لفظ الواحد ولفظ الأحد من عدة وجوه:

أحدها: أن الواحد يستعمل وصفًا مطلقًا بخلاف الأحد فإنه يختص بوصف الله تعالى نحو: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

الثاني: أن الواحد أعم موردًا؛ لأنه يطلق على من يعقل وغيره والأحد لا يطلق إلا على من يعقل.

الثالث: أن الواحد يجوز أن يجعل له ثان؛ لأنه لا يستوعب جنسه بخلاف الأحد ألا ترى أنك لو قلت: فلان لا يقاومه واحد جاز أن يقاومه اثنان أو أكثر)[3].

---

(١) الأزهري: تهذيب اللغة جـ٥ صـ١٢٧ . تحقيق محمد عوض . الطبعة الأولى ٢٠٠١م . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ٨ صـ٥٢٨، وراجع تفسير الخازن جـ٤ صـ٤٩٧ .

(٣) أبوهلال العسكري: معجم الفروق اللغوية صـ٥٦٦ . الطبعة الأولى ١٤١٢هـ . مؤسسة النشر الإسلامي.

ومن خلال هذه الأقوال التي نقلناها عن اللغويين نلاحظ أن هناك توافقًا تامًا بين استعمال مصطلح الأحدية عند الصوفية وعند اللغويين، فهو عند الصوفية يستعمل للدلالة على الذات الإلهية وحدها مع قطع النسب بينها وبين غيرها، فهو مصطلح يطلق على الله ذاتًا مجردة عن أي اعتبار .

وهو كذلك عند اللغويين، فهو للدلالة على تفرد الله بالوجود الذي لا يشاركه فيه غيره، ولذلك اختص بالإطلاق على الله وحده من دون ما عداه من الألفاظ الأخرى المتقاربة معه لفظًا ومعنى .

مصطلح الأحد من منظور شرعي:

لقد وجدنا في نصوص الشرع وظواهره من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ما يؤيد استخدام الصوفية لهذا المصطلح السابق، وأن استعماله كما كان صحيحًا لغة فهو أيضًا صحيح شرعًا ومن ذلك ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقد أجمع المفسرون على أن معناها (أنه ـ تعالى ـ هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ـ عزوجل ـ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله)[1] .

ولعل في سبب نزول هذه السورة الكريمة ما يؤيد هذه المعاني، فقد ذكر كثير من المفسرين عن أُبَيّ بن كعب ﷺ أن المشركين قالوا

(١) راجع: تفسير ابن كثير جـ٨صـ٥٢٨، وتفسير الخازن جـ٤صـ٤٩٧ .

لرسـول الله ﷺ : انسـب لنـا ربـك فـأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1].

وقال الطبري: (ذكر أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ عن نسب رب العزة فأنزل الله هذه السورة جوابًا لهم، وقال بعضهم بل نزلت من أجل أن اليهود سألوه فقالوا له: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ فأنزلت جوابًا لهم)[2].

فهذا يدل على أن الأحد في صفاته ـ سبحانه وتعالى ـ معناه أنه ليس له نسب ينسب إليه، بل هو مبدأ كل شيء وأصله، وكذلك لم يخلقه غيره بل هو الذي ابتدأ خلق كل شيء.

♦ قولـه تعـالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[3] أي أنـه سـبحانه وتعـالى يبـدأ الخلـق ولـم يـك شـيئًا ثـم يعيـده

---

(١) الواحدي: أسباب النزول بتحقيق كمال بسيوني زغلول صـ٥٠٠ . الطبعة الأولى ١٤١١هـ . دار الكتب العلمية.

(٢) تفسير الطبري جـ٢٤ صـ٦٨٧ تحقيق أحمد شاكر . الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م . مؤسسة الرسالة.

(٣) سورة الروم من الآية ٢٧ وقد ورد وصف الله تعالى بأنه يبدأ الخلق ثم يعيده في سبعة مواضع في القرآن الكريم هي: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ سورة يونس من الآية ٤، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ سورة يونس من الآية ٣٤ ، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ سورة النمل من الآية ٦٤ ، قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سورة العنكبوت الآية ١٩،
==

بعد الموت[1].

وقد وصف الله نفسه بأنه: المبدئ المعيد، ومعناهما: أنه يوجد خلقه من العدم، ثم يعدمهم، ثم يعيدهم إليه تارة أخرى.

يقول الغزالي عن اسمي الله ـ تعالى ـ المبدئ المعيد: (والمعنى: أنه الموجد، لكن الإيجاد إذا لم يكن مسبوقًا بمثله سمي إبداءً، وإذا كان مسبوقًا بمثله سمي إعادة، والله ـ سبحانه وتعالى ـ بدأ خلق الناس، ثم هو الذي يعيدهم أي يحشرهم، والأشياء كلها منه بدأت وإليه تعود، وبه بدأت وبه تعود)[2].

وهذا مختص بالله وحده؛ لأنه الإله الحق وأما ما سواه فلا يستطيع ذلك؛ ولذلك نفى الله ـ عزوجل ـ عن غيره أن تكون له قدرة على البدء أو الإعادة فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[3].

==

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ سورة الروم الآية ١١، قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ سورة البروج:١٣.

(١) الغزالي: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى صـ١٣٠ بتحقيق بسام عبدالوهاب الجابي. الطبعة الأولى ١٩٨٧م. ١٤٠٧هـ. دار الجفان.

(٢) نفس المصدر صـ١٣١.

(٣) سورة يونس من الآية ٣٤.

وكما دلت نصوص القرآن الكريم على صحة استعمال الصوفية لهذا المصطلح بهذا المعنى؛ كذلك وجدنا نصوص السنة المشرفة تدل على ذلك أيضًا، ومن ذلك ما يلي:

♦ روى البخاري عن عمران بن حصين ﵁ قال إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم، فقالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن، فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنوتميم، قالوا: قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان، قال: كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء)[1].

ففي هذا الحديث تصريح واضح بأن الله ـ عزوجل ـ كان موجودًا ولم يوجد شيء معه البتة، فكان أولاً لجميع مخلوقاته، متقدمًا عليها سابقًا لها.

قال ابن حجر في شرح هذا الحديث: (قوله كان الله ولم يكن شيء معه، وفي رواية ولم يكن شيء قبله، وفي رواية غير البخاري: ولم يكن شيء غيره فهذا تصريح بالعدم، وفيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره لا الماء ولا العرش ولا غيرهما؛ لأن كل ذلك غير الله تعالى)[2].

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ رقم ٣١٩١ وأخرجه كذلك في كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ رقم ٧٤١٨.

(٢) ابن حجر: فتح الباري جـ٦ صـ٢٨٩.

وبهذا يظهر لنا أن هناك اتفاقًا بين استعمال الصوفية لمصطلح الأحد وبين معناه الأصلي في اللغة وكذلك وروده في الشرع تصريحًا في الآيات الكريمة وتلويحًا إلى المعنى في الأحاديث الشريفة٠

٢ - **مصطلح أبطن كل باطن وبطون من منظور لغوي**:

وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا المصطلح يقصد به عند الصوفية غيبة الحق عن كل ما سواه، إذ لا شيء سواه حتى يظهر له٠

وقد وجدنا معاجم اللغة أيضًا تتفق على أن الفعل المكون من الباء والطاء والنون يستخدم للدلالة على الخفاء وعدم الظهور٠

يقول الجوهري: (البطن خلاف الظهر، وبطنت هذا الأمر إذا عرفت باطنه)[١]٠

وقال الزبيدي: (البطن خلاف الظهر، ومن أسماء الله ــ تعالى ــ الباطن: أي عالم السر والخفيات، وقيل هو المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم، فلا يدركه بصر، ولا يحيط به وهم)[٢]٠

فهذا المصطلح يدل ـ كما هو واضح ـ لغة على الستر والخفاء وعدم الظهور٠

---

(١) الجوهري: الصحاح جـ٥ صـ٢٠٧٩ . الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م . دار العلم للملايين . بيروت٠

(٢) الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس جـ٣٤ صـ٢٦٠ . دار الهداية بدون تاريخ٠

مصطلح أبطن كل باطن وبطون من منظور شرعي:

لقد وجدنا في أدلة الشرع من الآيات والأحاديث ما يفيد استعمال لفظ الباطن في نفس المعنى المستعمل عند الصوفية وكذلك في اللغة ومن ذلك:

- قولـــــه تعـــــالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

وقد أجمع المفسرون على أن الأول في صفاته ـ تعالى ـ هو أنه قبل كل شيء، والآخر هو أنه بعد كل شيء، والظاهر هو الذي دلت الآيات الظاهرة على وجوده، والباطن هو الذي احتجب عن خلقه فلا يدركه أحد منهم.

يقول الفخر الرازي: (أكثر المفسرين قالوا: إنه أول؛ لأنه قبل كل شيء، وآنه آخر؛ لأنه بعد كل شيء، وأنه ظاهر بحسب الدلائل، وأنه باطن محتجب عن الأبصار)[2].

وقال أبوحيان: (الأول: الذي قبل كل شيء، والآخر: الذي يبقى بعد هلاك كل شيء، والظاهر بالأدلة ونظر العقول في صفاته، والباطن لكونه غير مدرك بالحواس)[3].

---

(١) سورة الحديد آية (٣) .

(٢) الرازي: مفاتيح الغيب جـ٢٩ صـ٤٤٥ . الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

(٣) أبوحيان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير جـ١٠ صـ١٠٠ بتحقيق جماعة من العلماء . الطبعة الأولى ٢٠٠١ . دار الكتب العلمية . بيروت.

وقال الزجاج: (الأول هو موضوع السبق والتقدم، ومعنى وصفنا لله ـ تعالى ـ بأنه أول هو متقدم للحوادث بأوقات لا نهاية لها، فالأشياء كلها وجدت بعده، وقد سبقها كلها، والآخر هو المتأخر عن الأشياء كلها ويبقى بعدها، والظاهر هو الذي ظهر للعقول بحججه وبراهين وجوده وأدلة وحدانيته، والباطن هو العالم ببطانة الشيء فهو عارف ببواطن الأمور وظواهرها)[1].

وكذلك أحاديث النبي ﷺ قد دلت على هذا المعنى، ومن ذلك:

♦ روى ابن ماجة في سننه عن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول إذا أوى إلى فراشه: (اللهم رب السماوات والأرض، ورب كل شيء، وفالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر)[2].

يقول القاضي عياض: (أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء) هذا تفسير معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ وقوله وأنت الظاهر أي: في العلو والرتبة والقدرة، قال ـ تعالى ـ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ

(١) أبوإسحاق الزجاج: تفسير أسماء الله الحسنى صـ٥٩ . الطبعة الأولى ١٩٧٤م . دار الثقافة العربية . دمشق.

(٢) رواه ابن ماجة في سننه باب ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه جـ٥ صـ٣٣ رقم ٣٨٧٣ .

ﷺ وقيل معناه: الظاهر بالحجج والدلائل، والباطن: المحتجب عن أبصار الخلق) [1].

ويقول السيوطي: (أنت الظاهر أي: القاهر الغالب، وقيل: الظاهر بالأدلة القطعية، وأنت الباطن أي المحتجب عن الخلق، وقيل: العالم بالخفيات) [2].

♦ روى الإمام أحمد وابن ماجة والترمذي والطبراني وغيرهم عن أبي رزين قال: قلت يا رسول الله: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء) [3].

فهذا الحديث ـ أيضًا ـ يدل دلالة واضحة على أن الله ـ عزوجل ـ تقدم خلقه وسبقهم، وكان في خفاء عن خلقه لا يدركه أحد.

وقد أجمع شراح هذا الحديث على أن كلمة العماء المذكورة هنا إما أن تكون ممدودة (عماء) بمعنى سحاب رقيق أو كثيف، وإما أن تكون مقصورة (عمى) بمعنى لا أحد من الخلق يعرفه ولا يدركه.

يقول ابن قتيبة: (العماء: السحاب، وهو كما ذكر في كلام العرب، إن كان الحرف ممدودًا، وإن كان مقصورًا كأنه كان في عمى، فإنه أراد في

---

(١) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم جـ٨ صـ٩٨.

(٢) السيوطي: الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج جـ٦ صـ٦٧ . الطبعة الأولى ١٤١٦هـ . ١٩٩٦م . دار ابن عفان للنشر . السعودية.

(٣) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده جـ٤ صـ١١ رقم ٦٣٣ وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير جـ٤ صـ٢٠٦ رقم ٤٦٨، وابن ماجة في سننه جـ١ صـ٦٤ رقم ٦٥ والترمذي في سننه جـ٥ صـ٣٨٨ رقم٣١٠٩.

عمى عن معرفة الناس، كما تقول: عميت عن هذا الأمر فأنا أعمى عنه، إذا أشكل عليك فلم تعرفه ولم تعرف جهته، وكل شيء خفى عنك فهو في عمى عنك)[1].

ويقول المباركفوري: (وقوله: في عماء، إن كان بالمد فمعناه: سحاب رقيق، ويريد بقوله في عماء أي فوق سحاب مدبرًا له وعاليًا عليه، كما قال سبحانه: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] يعني من فوق السماء، وقوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾[3] يعني: على جذوعها، وقوله: ما فوقه هواء أي: ما فوق السحاب هواء، وما تحته هواء، أي ما تحت السحاب هواء، وقيل إن ذلك العمى مقصور، والعمى إذا كان مقصورًا فمعناه: لا شيء ثابت؛ لأنه مما عمى عن الخلق لكونه غير شيء)[4].

ويشرح ابن الأثير لفظ العماء الوارد في هذا الحديث فيقول: (العَمَاء بالفتح والمد: السحاب، قال أبوعبيد: لا يُدرى كيف كان ذلك العماء، وفي رواية كان في عمى بالقصر، ومعناه: ليس معه شيء، وقيل: هو كل أمر لا تدركه عقول بني آدم، ولا يبلغ كنهه الوصف والفطن)[5].

---

(١) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث جـ١ صـ٢٢٢ بتحقيق محمد زهري النجار . الطبعة الأولى . دار الجيل ١٩٧٢م.

(٢) سورة الملك آية ١٦ .

(٣) سورة طه آية ٧١ .

(٤) المباركفوري: تحفة الأحوذي جـ٨ صـ٤٢١ دار الكتب العلمية بدون تاريخ.

(٥) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر جـ٣ صـ٥٧٦ تحقيق طاهر أحمد الزاوي . الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ . ١٩٧٩م . المكتبة العلمية . بيروت.

وعلى ذلك يكون معنى الحديث أن الله ـ عزوجل ـ خفي عن خلقه فلم يظهر لهم، وحالت دون إدراكه الحوائل والموانع٠

ويؤيد هذا قول ملا علي القاري: (كان في عماء أي في غيب هوية الذات بلا ظهور مظاهر الصفات) [1]٠

ويشير الغزالي إشارة لطيفة إلى معنى اسمي الله الظاهر والباطن فيقول: (هذان الوصفان أيضًا من المضافات فإن الظاهر يكون ظاهرًا لشيء وباطنًا لشيء ولا يكون من وجهٍ واحد ظاهرًا وباطنا، بل يكون ظاهرًا من وجه بالإضافة إلى إدراك، وباطنًا من وجه آخر، فإن الظهور والبطون إنما يكون بالإضافة إلى الإدراكات، والله ــ سبحانه ــ باطن إن طُلب من إدراك الحواس وخزانة الخيال، ظاهر إن طُلب من خزانة العقل بطريق الاستدلال)[2]٠

أي أن الله ـ عزوجل ـ باطن أي: محتجب عن إدراك الخلق إن طلبوا إدراكه بحواسهم، لكنه ظاهر إن طلبوا الاستدلال عليه بآياته ومصنوعاته٠

يقول الغزالي: (فاعلم أنه إنما خفي مع ظهوره لشدة ظهوره، فظهوره سبب بطونه، ونوره هو حجاب نوره، وكل ما جاوز حده انعكس على ضده)[3]٠

---

(١) الملا علي القاري: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح جـ٦ صـ٣٨ . الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ . ٢٠٠٢م . دار الفكر . بيروت٠

(٢) الغزالي: المقصد الأسنى صـ١٣٧ ٠

(٣) نفس المصدر صـ١٣٧ ٠

وهكذا توافق استعمال الصوفية لذلك المصطلح مع وروده في الشرع كتابًا وسنة.

٣ - **مصطلح غيب الهوية من منظور لغوي:**

وقد مر أن هذا المصطلح معناه عند الصوفية تعقل الحق لذاته قبل وجود الوجود وقبل خلق الخلق، ولذلك كان غيبًا مكنونًا وسرًا مصونًا.

وهذا المعنى هو نفسه الذي وجدناه عند اللغويين، فيقول ابن فارس: (الغين والياء والباء أصل صحيح يدل على تستر الشيء عن العيون)[١]، **ويقول الجوهري:** (كل ما غاب عنك مما لا يعلمه إلا الله)[٢].

مصطلح غيب الهوية من منظور شرعي:

لقد تكرر لفظ الغيب مرات كثيرة في آيات القرآن الكريم، وكان من ضمن تلك المعاني الواردة في تلك الآيات أن الغيب هو الله ذاته، ففي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ قيل (إن الغيب هو الله ـ تعالى ـ لأنه لا يُرى في دار الدنيا وإنما ترى آياته الدالة عليه)[٣].

وقوله تعالى ﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ جاء في تفسيرها (أي من خاف الله من حيث لا يراه أحد) [٤].

---

(١) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة جـ٤ صـ٤٠٣ .

(٢) الجوهري: الصحاح جـ١ صـ١٩٦ .

(٣) الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز جـ٤ صـ١٥٢ .

(٤) نفس المصدر جـ٤ صـ١٥٢ .

وهذا يدل على اتفاق معنى هذا المصطلح بين الصوفية واللغويين وكذلك الشرع٠

٤ - مصطلح الكنز المخفي من منظور لغوي:

يشير هذا المصطلح عند الصوفية إلى استتار الله ـ عزوجل ـ عن خلقه بما له من صفات شريفة وأسماء نفيسة مجموعة في ذاته، ولا يحق لأحد الإطلاع عليها٠

وقد وجدنا نفس هذه المعاني مستعملة في اللغة للفظ الكنز ٠

يقول ابن فارس: (الكاف والنون والزاي: أصل صحيح يدل على تجمع في شيء، من ذلك: كنزت التمر في وعائه أكنزه، وكنزت الكنز أكنزه)[(١)]٠

فهذا المعنى الذي ذكره صاحب مقاييس اللغة يدل على الاجتماع في شيء واحد٠

مصطلح الكنز المخفي من منظور شرعي:

لقد وجدنا في النصوص الشرعية ما يؤيد استعمال الصوفية لهذا المصطلح في هذا المعنى ومن ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[(٢)] فقد ذكر المفسرون أن كلمة كنز تدل على شيء ثمين مجموع ومدفون تحت الجدارين المذكورين إما علم وإما مال٠

---

(١) معجم مقاييس اللغة جـ٥ صـ١٤١ ٠

(٢) سورة الكهف من الآية ٨٢. وقد ورد لفظ الكنز في القرآن الكريم مفردًا في ثلاثة مواضع منها هذا الموضع ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ هود١٢ ٠

==

قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم: إن هذا الكنز كان صحفا فيهما علم، وقال عكرمة وشعبة وقتادة: إن هذا الكنز كان مالاً مدفونًا[1].

وقد ذكر ابن جرير الطبري هذين الرأيين ثم قال: (وأولى التأويلين في ذلك بالصواب أنه كان مالاً؛ لأن المعروف من كلام العرب أن الكنز اسم لما يُكنز من مال، وأن كل ما كنز فقد وقع عليه اسم الكنز؛ فإن التأويل مصروف إلى الأغلب من استعمال المخاطبين بالتنزيل)[2].

وقد تكرر لفظ الكنز في القرآن الكريم مفردًا ومجموعًا مرات عديدة وكلها تدل على نفس هذا المعنى مثل قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾[3].

ولكن الكنز لا يسمى كذلك لمجرد الاجتماع بل لابد فيه من مراعاة شيء آخر وهو أن يكون مستترًا ومصونًا عن المشاهدة.

==

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ الفرقان٨.

وورد بلفظ الجمع في موضعين هما قول الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ القصص من الآية ٧٦ .

وقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ الشعراء ٥٧، ٥٨.

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٥ صـ١٨٥ .

(٢) تفسير الطبري جـ١٨ صـ٨٨ .

(٣) سورة الشعراء آيتا ٥٧ . ٥٨ .

يقول الزبيدي: (الكنز: المال المدفون تحت الأرض، وقيل: الكنز: اسم للمال إذا أُحرز في وعاء)[1]٠

فالكنز لا يسمى بهذا الاسم إلا إذا اجتمعت فيها معان ثلاثة:

- أن يكون شيئًا نفيسًا٠
- أن يكون مجتمعًا بعضه إلى بعض٠
- أن يكون مخفيًا مستترًا لا تدركه الأبصار٠

وهي ذات المعاني التي يقصدها الصوفية عند إطلاق هذا مصطلح الكنز المخفي على الحق عزوجل٠

وكما دلت آيات القرآن على هذا المعنى جاءت السنة المشرفة مصرحة به أيضًا ومن ذلك:

♦ عن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فكنا إذا علونا كبرنا، فقال النبي ﷺ: أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، ولكن تدعون سميعا بصيرا، ثم أتى عليّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال يا عبدالله بن قيس، قل: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة[2]٠

---

(١) تاج العروس جـ١ صـ٣٧٩٥ ٠

(٢) هذا الحديث متفق عليه رواه البخاري في صحيحه . كتاب الدعوات . باب الدعاء إذا علا عقبة جـ٨ صـ٨٢ رقم ٦٣٨٤، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر جـ٨ صـ٧٣ رقم٧٠٣٧ ٠

فالنبي ﷺ يشبه ثواب هذه الكلمة بالكنز، والكنز ـ كما مر ـ شيء ثمين مدخر لا يطلع عليه أحد، كذلك ثواب هذه الكلمة مدخر لصاحبها لا يعلمه أحد إلا الله.

قال ابن حجر: (كنز أي: أجر قائلها مدخر كالكنز) [1].

وقال القاضي عياض: (كنز في الجنة أي: أجر مدخر وثواب لقائلها، وقيل بل لمن اتصف بذلك) [2].

مصطلح أم الكتاب من منظور لغوي:

إذا كان الصوفية يقصدون بهذا المصطلح التعبير عن كنه الذات وحقيقتها، وكونها أصلاً لجميع الأشياء، وأن كل شيء فإنما هو مندرج فيها، فإن هذه المعاني هي نفس المعاني اللغوية الواردة لكلمة أُمّ.

يقول الفيروزآبادي: (ويقال لكل ما كان أصلاً لوجود الشيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه: أم، وقال الخليل: كل شيء ضم إليه سائر ما يليه يسمى أما)[3].

فذات الله ـ تعالى ـ هي أصل الوجود، وهو ـ سبحانه ـ مبدأ الوجود ومصلحه وهو رب العالمين الذي إليه يرد كل شيء.

---

(١) ابن حجر: فتح الباري جـ١ صـ١٨٠.

(٢) القاضي عياض: إكمال المعلم شرح صحيح مسلم جـ٨ صـ١٠٦.

(٣) بصائر ذوي التمييز جـ١ صـ١٤٣٤.

مصطلح أم الكتاب من منظور شرعي:

لقد ورد لفظ أم الكتاب في القرآن الكريم ليدل على نفس المعنى المستعمل عند الصوفية والوارد في المعاجم اللغوية ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾[1].

وقد أجمع المفسرون على أن المقصود بأم الكتاب إما أصله أو المتقدم منه.

قال الإمام الماتريدي: (وقوله تعالى ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يحتمل وجهين:

يحتمل أم الكتاب أي أصل الكتاب.

ويحتمل أم الكتاب أي المتقدم على غيرها وعلى هذا يخرج (أم القرى) أعني مكة؛ لأنها هي المتقدمة على غيرها من القرى ويحتمل هي أصل القرى، كما سمي فاتحة الكتاب أم القرآن لأنها أصل، أو لأنها هي المتقدمة على غيرها من السور)[2].

---

(١) سورة آل عمران من الآية ٧ وقد ورد هذا اللفظ في القرآن مرتين أخريين غير هذه المرة هما قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الرعد ٣٩، وقوله تعالى:﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ الزخرف:٤ .

(٢) الإمام الماتريدي: تأويلات أهل السنة جـ٢ صـ٣٠٣ بتحقيق مجدي باسلوم . الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥م . دار الكتب العلمية.

وقال الزمخشري: (أم الكتاب يعني: أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وترد إليها)[١]٠

وقال القاضي البيضاوي: (أم الكتاب: أصله الذي يرد إليه غيره)[٢]٠

وقال ابن عادل الحنبلي: (أم الكتاب أي أصل الكتاب، ولهذا جاء بلفظ الإفراد لا بلفظ الجمع أي هن أصل الكتاب والأصل يوحد)[٣]٠

فأم الكتاب هي أصل الكتاب المتقدم على غيره كما أن الله . عزوجل ـ هو أصل الوجود المتقدم على كل موجود٠

وهكذا رأينا في مصطلحات تلك المرحلة كيف أنها كانت متوافقة بل ومتطابقة تمامًا في استعمال الصوفية مع اللغة ثم النصوص الشرعية في الكتاب والسنة٠

---

(١) الزمخشري: الكشاف جـ١ صـ٣٣٧ الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٧هـ . دار الكتاب العربي . بيروت٠

(٢) القاضي البيضاوي: أنوار التنزيل جـ٢ صـ٦ الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ . دار إحياء التراث٠

(٣) ابن عادل الحنبلي: اللباب في علوم الكتاب جـ٥ صـ٢٨ تحقيق علي أحمد معوض . الطبعة الأولى . ١٩٩٨م . دار الكتب العلمية٠

المبحث الثالث

المصطلحات الخاصة بظهور الموجودات (التعين)

١ - عالم الإمكان:

يقول الجيلي: (من مراتب الوجود عالم الإمكان فإن التجليات العقلية آخر التنزلات الإلهية الخفية، والعقل الأول أول التنزلات الإلهية الخَلْقية، فالإمكان مرتبة متوسطة بين الحق والخلق لأنه ـ أعني الإمكان ـ لا يطلق عليه العدم ولا الوجود لما فيه من قبول الجهتين، فإذا تعين ممكن من عالم الإمكان نزل وظهر إلى العالم الخَلْقي، وهكذا ما ليس بمتعين فإنه باق على إمكانه، فعالم الإمكان برزخ بين الوجودين أعني وجود القديم ووجود المحدث، وسببه أنه لا يصح وقوع اسم العدم على الممكن من كل جهة اللهم إلا بنسبة ما فيصح عليه في مقابلة تلك النسبة اسم الوجود ـ أيضًا ـ فلا وجود ولا عدم فهو مرتبة متوسطة بين الوجود الحقيقي والمجازي، إذ العدم عند المحققين عبارة عن الخلق، والوجود عبارة عن الحق، والخلق معدوم والحق موجود، والممكن متوسط بين المرتبتين، فالموجود المطلق الذي ليس بمعقود ولا معدوم ولا متلاشى ولا هالك هو الله تعالى عن أوصاف المحدثات)[١]٠

فهذا المصطلح لابد وأن يذكر أولاً قبل أي مصطلح من مصطلحات التعين؛ لأنه المرتبة المتوسطة بين الوجود الحق وهو وجود الله ـ تعالى ـ وبين ظهور موجوداته٠

(١) عبدالكريم الجيلي: مراتب الوجود صـ٤٦ ٠

٢ - أول ما ظهر من البطون:

يتحدث القاشاني عن هذا المصطلح فيقول: (هو الوجود المفاض على الأعيان، وبهذا المعنى يسمى عامًا ومشتركًا لا أنه بمعنى كلي فقط، فإن الكل لا يتحقق في الأعيان)[١].

والواقع أنه يلحق بهذا المصطلح مصطلحات أخرى تحمل نفس المعنى مثل مصطلح أول موجود من الممكنات الذي هو (العقل لأنه أول قابل للوجود المفاض)[٢] ومثل مصطلح أول موجود الذي يعرفه ابن عربي قائلاً: (اعلم ـ نور الله بصيرتك ـ أن أول موجود اخترعه الله تعالى جوهر بسيط روحاني فرد غير متحيز في مذهب قوم ومتحيز في مذهب آخرين، ولو شاء ـ سبحانه ـ لاخترع أشياء متعددة دفعة واحدة خلافًا لما يدعيه بعض الناس من أنه لا يصدر عن الواحد إلا واحد، ولو كان هذا لكانت الإرادة قاصرة والقدرة ناقصة إذ وجود أشياء متعددة واحدة ممكن لنفسه غير ممتنع، والممكن محل تعلق القدرة فإن ثبت أن أول موجود واحد فاختيار منه تعالى) [٣].

٣ - التجلي المعطي للوجود:

يتحدث ابن عجيبة عن هذا المصطلح فيقول: (وسمي بتجلي الوجود لكون الحقائق بهذا التجلي تصير موجودة)[٤]، وقد يعبر عنه بمصطلح آخر

---

(١) لطائف الأعلام جـ١ صـ٢٥٤ .

(٢) نفس المصدر صـ٢٥٥ .

(٣) ابن عربي: التدبيرات الإلهية صـ١٢١ .

(٤) لطائف الأعلام جـ١ صـ٣٠٤ .

هو: (التجلي الساري في جميع الذراري، وهو التجلي المفاض، أو التجلي المضاف، ويعني بالكل: الوجود الذي به صارت جميع الممكنات موجودة)[١].

٤ - **مصطلح الفتق**:

(وهو الظهور من البطون، ويعني به: تعدد العين الواحدة وتعيناتها، ويقال: الفتق ويراد به تعدد وحدة مطلق البطون بظهور شؤون الوحدة بصور الكثرة الفاتقة لرتقها؛ ويعني بالفتق توصل المادة الوحدانية الإجمالية المسماة بالعنصر الأعظم[٢] المرتوقة قبل خلق السماوات والأرض المفتوقة بعد تعينهما) [٣].

٥ - **ينبوع مظاهر الوجود**:

(هو التعين الثاني الذي هو حضرة المعاني والمعلومات، سمي بذلك لكون الوجود الواحد إنما يصير متعددًا متكثرًا باعتبار ما تشتمل عليه هذه الحضرة العلمية من المعاني؛ فلهذا سميت ينبوع المظاهر)[٤].

---

(١) نفسه جـ١ صـ٣٠٥ .

(٢) العنصر الأعظم مصطلح صوفي يتعلق بمسألة الوجود والمقصود به: المادة الأولى الوحدانية المعتدلة بين حقائق العناصر الأربعة وتعيناتها وتميزاتها وهي مادة السماوات والأرض وهذه المادة كانت مرتوقة قبل خلقها ثم فتقت عند تعين السماوات والأرض) راجع القاشاني: لطائف الأعلام جـ٢ صـ١٦٦ .

(٣) لطائف الأعلام جـ٢ صـ١٩٨ .

(٤) نفس المصدر جـ٢ صـ٤٠٦ .

٦ - مصطلح البرزخية الحائلة بين الوحدة والكثرة الحقيقيين:

(هي البرزخية الثانية فإنه لما كانت هي التعين الثاني الذي هو حضرة ارتسام المعاني وتفصيل المعلومات وتميزها بعد أن كانت شئونًا للوحدة مدرجة فيها مجملة غير مفصلة ولا متميزة عنها، أعني: الوحدة، صارت هذه الحضرة محلاً لكثرة نسبية هي تفصيل المعاني التي كانت شئونا مجملة في الوجود، فهي بهذا الاعتبار برزخ حائل بكثرته النسبية بين الوحدة الحقيقية التي هي وحدة الذات، وبين الكثرة الحقيقية التي هي صور الموجودات) (١)٠

٧ - مصطلح الظل:

(يشيرون به إلى كل ما سوى الله ـ تعالى ـ من أعيان الكائنات وذلك من وجهين:

أحدهما: هو أنه لما لم يكن لشيء من الكائنات استقلال بنفسه لاستحالة وجود ما سوى الحق ـ تعالى ـ بذاته صارت الكائنات ظلاً من حيث إن الظل لا تحرك له إلا بحركة صاحبه، ولا حقيقة له ولا صورة ولا ذات إلا بحسب ما ينبعث عن الشيء الذي هو ظل له، فهكذا من شهد الحقيقة فإنه يرى الكائنات ظلاً لا تستطيع لنفسها نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا٠

الثاني: هو أنه لما كانت حقيقة الظل إنما هو عدم النور الشمسي أو غيره في بقعة ما لساتر ما صارت الكائنات ظلاً بهذا المعنى؛ لأن حقيقة

---

(١) نفس المصدر جـ١ صـ٢٨١ ٠



الظل لا ترجع إلى شيء في نفسه بل إنما تتعين بالنور، فكذلك كل ما سوى الله ـ تعالى ـ ليس هو شيئًا في نفسه إنما هو شيء بربه)[1].

هكذا: دارت المصطلحات السابقة حول ظهور الموجودات وتعينها، أي: بروزها من العدم إلى الوجود بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، والمؤثر في هذا الظهور والتعين شيء آخر غير الموجودات ذاتها.

ولننظر الآن إلى تلك المصطلحات من منظور اللغة والشرع لنرى هل اقترب الصوفية من الميدانين اللغوي والشرعي أم لا.

١ - مصطلح أول ما ظهر من البطون من منظور لغوي: هذا المصطلح وما لحق به من مصطلحات متقاربة في اللفظ متحدة في المعنى تدور حول الظهور بعد الخفاء، وقد ذكرنا في مصطلحات المرحلة الأولى مصطلح البطون وهنا يأتي الظهور.

يقول ابن فارس: (الظاء والهاء والراء: أصل صحيح يدل على قوة وبروز من ذلك: ظهر الشيء يظهر ظهورًا فهو ظاهر إذا انكشف وبرز، ولذلك سمي وقت الظهر والظهيرة وهو أظهر أوقات النهار وأضوؤها)[2].

ويتحدث ابن منظور عن هذا الفعل "ظهر" الذي يدل على الانكشاف والوضوح ومن ذلك: (صلاة الظهر اسم لنصف النهار، سمي به من ظهرة الشمس وهو شدة حرها، وقيل: أضيفت إليه لأنه أظهر أوقات الصلوات للأبصار، وقيل: لأنها أول صلاة أظهرت فصُليت)[3].

---

(١) لطائف الأعلام جـ٢ صـ٩٢ .

(٢) معجم مقاييس اللغة جـ٣ صـ٤٧١ .

(٣) لسان العرب جـ٤ صـ٥٢٠ .

ومن ذلك أيضًا الظاهر في أسماء الله ـ تعالى ـ وهو (الذي ظهر فوق كل شيء وعلا عليه، وقيل هو الذي عرف بطريق الاستدلال العقلي بما ظهر لهم من آثار أفعاله وأوصافه) [1].

مصطلح أول ما ظهر من منظور شرعي: اتضح لنا فيما سبق أن الظاهر خلاف الباطن، فالباطن هو الشيء الخفي الغائب عن الأنظار، والظاهر هو الشيء الجلي الواضح للأنظار، وهذا ما جاءت به النصوص الشرعية فيما يخص معنى الظاهر، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿**هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ**﴾ وقد تقدم ذكر معنى هذه الآية والذي يعنينا هنا هو أن الظاهر هو: (المعلوم بالأدلة الدالة عليه)[2].

قال البيضاوي: (هو الظاهر وجوده لكثرة دلائله) [3].

وقال ابن عطية: (الظاهر معناه: الذي ظهر وجوده بالأدلة ونظر العقول في صنعته) [4].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ**﴾ يقول الطبري: (يعني اجتنبوا معصية الله في السر وهو الباطن وفي العلانية وهو الظاهر) [5].

---

(١) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر جـ٣ صـ١٦٧ .

(٢) القاسمي: محاسن التأويل جـ٩ صـ١٣٧ .

(٣) أنوار التنزيل جـ٥ صـ١٨٥ .

(٤) المحرر الوجيز جـ٥ صـ٢٥٧ .

(٥) جامع البيان جـ٢ صـ٧٣ .

وقال الإمام الماتريدي: (ذروا ظاهر الإثم بظاهر الجوارح من نحو اليد والرجل واللسان والعين، وباطن الجوارح من القلوب والضمائر)[1]٠

وقال القرطبي: (الظاهر ما كان عملاً بالبدن مما نهى الله عنه وباطنه ما عقد بالقلب من مخالفة أمر الله) [2]٠

وقد تقدم الحديث الشريف الذي فيه (أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء) وقد علمنا أن الظهور خلاف البطون والظاهر خلاف الباطن٠

٢ - مصطلح التجلي من منظور لغوي:

من مصطلحات هذه المرحلة التجلي وهو يفيد ـ مع تعدد ألفاظه ـ الوجود بعد العدم والظهور بعد البطون٠

وقد ورد هذا المصطلح في اللغة بهذا المعنى تمامًا حيث يستعمل التجلي في اللغة ليدل على البروز والانكشاف، فيقال: (جلا الأمر وجلاه وجلّى عنه كشفه وأظهره، وأمر جَلِيّ أي: واضح، وتقول: اجلُ لي هذا الأمر أي: أوضحه، والجلاء البين الواضح، ويقال: تجلى الشيء إذا انكشف) [3]٠

(١) تأويلات أهل السنة جـ٤ صـ٢٤٣ ٠

(٢) جامع البيان جـ٧ صـ٧٤ ٠

(٣) لسان العرب جـ١٤ صـ١٤٩ ٠

ويقول ابن فارس: (التجلي: انكشاف الشيء وبروزه، يقال: جلوت العروس جلوة وجلاءً، وقال الكسائي: السماء جلواء أي مصحية، ويقال: تجلى الشيء إذا انكشف)[1].

مصطلح التجلي من منظور شرعي:

وقد رأينا استعماله في الشرع بنفس هذا المعنى.

فأصل الجلو هو الكشف والظهور[2] وقد ورد في القرآن الكريم بهذا المعنى في عدة مواضع أشهرها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ معناه: (ظهر ظهورًا عظيمًا بضياء الشمس، وأظهر ما كان خفيًا فلم يدع لمبصر شيئًا من لبس، فمن كان يريد السر قصد الليل ومن كان يريد الجهر قصد النهار)[3].

وهذا هو نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾.

والتجلي في الآيتين السابقتين هو تجلي بالذات أي أن ذات النهار هي التي تجلت للبصر وكذلك ذات الشمس.

---

(١) معجم مقاييس اللغة جـ١ صـ٤٦٨ .

(٢) بصائر ذوي التمييز جـ٢ صـ٣٨٩ .

(٣) البقاعي: نظم الدرر جـ٢ صـ٨٧ .

لكن قوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ هو تجلٍ بالأمر والفعل، قال البيضاوي: (﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾: ظهر له عظمته وتصدى له اقتداره وأمره) [١].

وقال العز بن عبدالسلام في هذه الآية: (تجلى: أي ظهر بآياته التي أحدثها لحاضري الجبل، أو ظهر من ملكوته للجبل ما تدكدك به، أو أظهر أمره للجبل، والتجلي الظهور) [٢].

وقال الإمام الماتريدي: (تجلى بالآيات والأعلام التي بها يرى لا رؤية الذات) [٣].

فهذه الأقوال تفيد أن التجلي هو الظهور والانكشاف والوضوح.

٣ - مصطلح الفتق من منظور لغوي:

يدل هذا اللفظ في اللغة على الفصل بعد الالتئام وعلى التفريق بعد الاجتماع.

يقول الفيروزأبادي: (الفتق: الشق، فتقه وفتَّقه فتفتق وانفتق، ومفتق القميص مشقه، والفتق والفتق والفتيق الصبح) [٤].

وقال ابن الأثير: الفتق أصله الشق والفتح) [٥].

---

(١) أنوار التنزيل جـ٣ صـ٣٣ .

(٢) تفسير العز بن عبدالسلام جـ١ صـ٥٠١ .

(٣) تأويلات أهل السنة جـ٥ صـ٤ .

(٤) بصائر ذوي التمييز صـ١١٩٠ .

(٥) النهاية في غريب الأثر جـ٣ صـ٤٠٨ .

ويقول الزمخشري: تقول العرب (انظر إلى فتق الفجر أي انشقاقه، قال ذو الرمة:

وقد لاح للساري الذي كمل السرى .:. على أخريات الليل فتق مشهر[1]

مصطلح الفتق من منظور شرعي:

وقد مر أنه يقصد به عند الصوفية التعدد والكثرة بعد الوحدة والانفصال بعد الاتصال.

وقد رأينا في نصوص الشرع ما يفيد ذلك المعنى تمامًا وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقد أفادت أقوال المفسرين حول هذه الآية أن الفتق هو الانفصال بعد الاتصال والالتصاق، أو هو الشق بعد الانسداد، قال ابن قتيبة: (﴿ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ أي كانتا شيئًا واحدًا ملتئمًا، ومنه يقال هو يرتق الفتق أي يسده وقيل للمرأة: رتقاء، ففتقناهما يقال كانتا مصمتتين ففتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات)[2].

وقال الزمخشري في معنى ﴿ كَانَتَا رَتْقًا ﴾: (أي أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السماوات متلاصقات وكذلك

(١) أساس البلاغة جـ٢ صـ٥ .

(٢) غريب القرآن جـ١ صـ٢٤٣ . تحقيق أحمد صقر . دار الكتب العلمية سنة ١٩٧٨م.

الأرضون لا فُرَج بينها ففتقها الله وفرج بينها، وقيل ففتقناهما بالمطر والنبات بعدما كانت مصمتة) [١].

وقال البيضاوي معناها: (إن السماوات والأرض كانتا رتقًا ذات رتق أو مرتوقتين، وهو الضم والالتحام، أي كانتا شيئًا واحدًا وحقيقة متحدة ففتقناها بالتنويع والتمييز، أو كانت السماوات واحدة ففتقت بالتحريكات المختلفة حتى صارت أفلاكًا، وكانت الأرضون واحدة فجعلت باختلاف كيفياتها وأحوال طبقات وأقاليم، وقيل كانتا بحيث لا فرجة بينهما ففرج، وقيل كانتا رتقًا لا تمطر ولا تنبت ففتقناهما بالمطر والنبات) [٢].

وقال الماوردي معنى ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ فيه ثلاث تأويلات:

أحـــدها: أن السماوات والأرض كانتا ملتصقتين ففتق الله بينهما بالهواء. قاله ابن عباس.

الثاني: إن السماوات كانت مرتتقة مطبقة ففتقها الله سبع سماوات، وكانت الأرض كذلك ففتقها سبع أرضين، قاله مجاهد.

الثالث: أن السماوات كانت رتقا لا تمطر، والأرض كانت رتقًا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات، قاله عكرمة والرتق سد والفتق شق وهما ضدان) [٣].

---

(١) الكشاف جـ٣ صـ١١٣ .

(٢) أنوار التنزيل جـ٤ صـ٥٠ .

(٣) الماوردي: النكت والعيون جـ٣ صـ٤٤٤ .

٤ - مصطلح ينبوع مظاهر الوجود من منظور لغوي:

لفظ ينبوع أصله نبع وهذا الفعل الثلاثي يدل على الظهور والخروج من مكان باطن إلى مكان ظاهر، يقال: (نبع الماء نبوعًا إذا ظهر، والينبوع المكان الذي ينبع منه الماء) [١].

ويقول الزمخشري: (نبع من فلان أمر أي ظهر، وفجر الله ينابيع الحكمة على لسانه أي أظهرها) [٢].

ويقال: (نبع الماء إذا خرج من العين، ومنه قيل للعين ينبوع، وقال ابن دريد: الينبوع الجدول الكثير الماء) [٣].

مصطلح ينبوع مظاهر الوجود من منظور شرعي:

دل هذا المصطلح على خروج أشياء كثيرة من أصل واحد، فعين الماء واحدة ينبع منها جداول كثيرة، وكذلك أصل الوجود واحد وهو واجب الوجود يظهر عنه مظاهر للخلق كثيرة.

وقد وجدنا أصلاً لهذا المصطلح في نصوص القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾.

قال الفخر الرازي: (ينبوعًا: عين ينبع الماء منه تقول: نبع الماء ينبع نبعًا ونبوعًا)[٤].

---

(١) شمس العلوم جـ١ صـ٤٦٦ .

(٢) أساس البلاغة جـ٢ صـ٢٤٤ .

(٣) بصائر ذوي التمييز جـ٥ صـ١٣ .

(٤) مفاتيح الغيب جـ٢١ صـ٤٠٨ .

وقال البيضاوي: (الينبوع عين لا ينضب ماؤها: يفعول من نبع الماء، كيعبوب من عب الماء إذا زخر)[1].

وقد اختلفت وجوه القراءة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿تَفْجُرَ﴾ فقرأ عاصم وحمزة والكسائي تَفْجُر بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة وذلك لأن الينبوع واحد.

وقرأ الباقون بالتشديد، وذلك إما ليدل على كثرة طلبهم لهذا الأمر وإما ليدل على كثرة الانفجار فلذلك يحسن أن يثقل)[2].

٥ - مصطلح البرزخية الحائلة من منظور لغوي:

يستخدم لفظ البرزخ في اللغة ليدل على الحيلولة والحجز بين شيئين، فالبرزخ هو: (ما بين كل شيئين من حاجز) [3].

ويقول الفيروزآبادي: (البرزخ هو الحاجز بين شيئين والبرزخ في القيامة: الحائل بين الإنسان وبين بلوغ المنازل الرفيعة في الآخرة)[4].

---

(١) أنوار التنزيل جـ٣ صـ٢٦٦.

(٢) الحجة في القراءات السبعة لابن خالويه جـ٢ صـ٥٥، وراجع: الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر جـ٢ صـ٣٧٧.

(٣) لسان العرب جـ٣ صـ٨.

(٤) بصائر ذوي التمييز جـ٢ صـ٣٣٨.

مصطلح البرزخية الحائلة من منظور شرعي:

يستخدم الصوفية هذا المصطلح ليشيروا إلى المرحلة الحاجزة بين الوحدة وهي وجود الله وحده وبين الكثرة التي أظهرها الله في الموجودات وقد علمنا أن البرزخ حاجز بين شيئين٠

وقد وجدنا في نصوص القرآن الكريم استخدام لفظ البرزخ بنفس هذا المعنى وذلك في عدة مواضع:

ـ قال تعالى: ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾٠

ـ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾٠

ـ قال تعالى: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾٠

ففي الآية الأولى البرزخ ـ كما يقول العز بن عبدالسلام: (هو الحاجز بين الموت والبعث، أو بين الدنيا والآخرة، أو بين الموت والرجوع إلى الدنيا)(١)٠

وقال الماتريدي: (البرزخ هو ما بين شيئين فهو الأجل ما بين الموت والبعث، وقيل: هو الحاجز بين الموت والرجوع إلى الدنيا وكل شيء بين شيئين فهو برزخ، وتأويله أنهم صاروا إلى الوقت الذي يحجزهم عما يتمنون ويشتهون)(٢)٠

---

(١) تفسير العز بن عبدالسلام جـ٢ صـ٣٨٣ ٠

(٢) تأويلات أهل السنة جـ٧ صـ٤٩٤ ٠

وفي الآية الثانية معنى البرزخ: (أي الحاجز بين البحرين بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر)[1]،

وهو نفس المعنى في الآية الثالثة، قال ابن كثير: (البرزخ هو الحاجز من الأرض لئلا يبغى هذا على هذا وهذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه) [2]،

٦ - مصطلح الظل من منظور لغوي:

يستعمل لفظ الظل في اللغة ليدل على أي شيء وقعت عليه الشمس فجعلت له سوادًا يشبهه، قال ابن الأثير: (الظل: الفيء الحاصل من الحاجز بين الشيء وبين الشمس أي شيء كان)[3]،

(ويقال مكان ظليل أي ذو ظل أو دائم الظل)[4]،

معنى ذلك أن الشمس تقع على جسم من الأجسام فتجعل له ظلاً فهذا الظل ليس له وجود مستقل بدون ذلك الشيء الأصلي الذي أصبح هذا السواد ظلاً له،

---

(١) نفس المصدر جـ٨ صـ٣٤ ،

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ٧ صـ٤٩٣ ،

(٣) غريب الحديث والأثر جـ٣ صـ١٥٩ ،

(٤) بصائر ذوي التمييز جـ٣ صـ٥٣٧ ،

مصطلح الظل من منظور شرعي:

لفظ الظل من الألفاظ الواردة المتكررة في القرآن الكريم بكثرة[١]، وهي تدل على نفس المعنى الذي أورده الصوفية وكذلك وجدناه في معاجم اللغة العربية من أن الظل شيء لا وجود له بذاته بل يستمد وجوده من غيره الذي هو أصل له، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾[٢] فهذا توجيه إلى تعرف بدائع الخلق، وأن ذلك صنع الله تعالى خالق كل شيء ومبدعه، خلقه الله ـ سبحانه ـ بإرادته المختارة التي ينشئ بها كل شيء في الوجود، فلا تصدر عنه صدور العلة عن معلولها[٣].

وقال ابن كثير: (الظل هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ومعنى ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أي: لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف فإن الضد لا يعرف إلا بضده) [٤].

---

(١) مثل قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ النساء ٥٧، وقوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ البقرة٥٧، وقوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ سورة النحل ٤٨، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ سورة القصص٢٤، وقوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ سورة الرعد ١٥ وغيرها .

(٢) سورة الفرقان آيتا ٤٥، ٤٦ .

(٣) أبوزهرة: زهرة التفاسير جـ١٠ ص٥٢٨٩ . دار الفكر العربي . بدون تاريخ.

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ٦ صـ١١٣ .

ويقول الإمام المراغي رحمه الله: (أي ثم جعلنا طلوع الشمس دليلاً على ظهور الظل ومشاهدته للحس والعيان، والأشياء تستبين بضدها، فلولا الشمس ما عرف الظل، ولولا الظلمة ما عرف النور)(١)٠

ومعنى ذلك أن الظل لا وجود له في ذاته بل لابد له من أصل يدل عليه، وكذلك الممكنات لا وجود لها في ذاتها إلا إذا نظرنا إلى موجدها وهو الواجب جل في علاه٠

يقول ابن عجيبة: (الكون كله من جهة حسه الظاهر ظل آفل، وضباب حائل لا وجود له من ذاته وإنما الوجود للمعاني القديمة الأزلية، فنسبة الكائنات من بحر المعاني الأزلية كنسبة ظلال الأشجار في البحار، فظلال الأشجار في البحار لا تمنع السفن من التسيار فكذلك ظلال الكائنات لا تمنع سفن الأفكار من الخوض في بحار المعاني الأزلية الجبرونية بل تخرقها وتخوض في بحار الأحدية الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية والعلوية والسفلية، ولا يحجبها عن الله ظل شيء من الكائنات، وإليه الإشارة بقوله: ألم تر أيها العارف إلى ربك كيف مد ظل الكائنات ليعرف بها كنز ربوبيته وبطون غيبه، ثم يرفع ذلك الظل عن عين البصيرة التي أراد فتحها فتشاهد بطون الأزل، وغيب الغيب وتصير عارفه بالله، ولو شاء لجعله ساكنًا فتقع به الحجاب فيحجب العبد بسُحب الأثار عن شهود الأنوار، ثم جعلنا شمس العرفان عليه أي على الأثر دليلاً فيستدل بالله على غيره فلا يُرى غيره ثم قبضناه أي ذلك الظل عن قلب السائر أو العارف قبضًا يسيرًا،

---

(١) تفسير المراغي جـ١٩ صـ٢١ . الطبعة الأولى ١٩٤٦م . مكتبة مصطفى البابي الحلبي٠

فيغيب عنه شيئًا فشيئًا حتى يغني عن حسه وحس غيره من الكائنات فلا يشهد إلا المكوِّن؛ لأن ذلك إنما يكون بالتدرج والتدريب فإذا تحقق فناؤه رجع إلى شهود الأثر بالله قيامًا برسم الحكمة وأداء الحق العبودية) (١)٠

وهكذا فقد توافق معنى الظل في الاستعمال الصوفي مع ما ورد في معاجم اللغة ثم جاءت آيات القرآن مصدقة لنفس المعنى ومؤيده له٠

وهكذا جاءت مصطلحات تلك المرحلة أيضًا التي استعملها الصوفية للدلالة على إظهار الله تعالى للكائنات بعد خفائها ووجودها بعد عدمها، جاءت متوافقة تمامًا مع صحيح اللغة العربية ثم أيد هذا الاستعمال نصوص القرآن والسنة٠

(١) ابن عجيبة: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد جـ٤ صـ١٠٧ بتحقيق أحمد عبدالله القرشي . الطبعة الأولى سنة ١٤١٩هـ . دار الكتب العلمية٠

المبحث الرابع

مصطلحات التدبير والعناية

هذه المصطلحات نوعان:

أ - مصطلحات خاصة بالتدبير والعناية بالموجودات بصفة عامة.

ب - مصطلحات خاصة بالعناية بالمريد السالك في الطريق الصوفي بصفة خاصة.

أولا: مصطلحات العناية بالموجودات بصفة عامة:

١ - المدد الوجودي:

ومعناه عند الصوفية أن الله بعد أن أوجد المخلوقات على اختلاف أنواعها، فإنه يعطيها أسباب بقائها وعوامل صلاحها بصورة متجددة، بحيث يمد كل نوع من الموجودات بما يحتاج إليه بصورة دائمة ومستمرة.

ويتحدث القاشاني عن هذا المصطلح فيذكر أنه: (يعني به وصول ما يحتاج إليه كل ما سوى الحق ـ تعالى ـ من تجدد إمداده له ـ تعالى ـ بتجدد الأنفاس، وكل شخص إنسانيًا أو غير إنساني، روحانيًا كان أو جسمانيًا فإنه يحتاج كل آن إلى تجديد المدد الوجودي المرجح لجانب بقاء ذلك الشخص على فنائه الذي هو من مقتضى عدم ماهيته، فوصول هذا

المدد دائما مع الآنات هو الخلق الجديد الذي فهمه علماء الحقيقة مما ورد بلسان الشريعة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1])[2]٠

وهذا المدد لبقاء هذه الموجودات لا يمكن أن يعقل إلا إذا نسبناه إلى الله ـ عزوجل ـ الذي هو الممد لكل موجود بما يحتاجه (فإن العقل يعجز عن إدراك تجدد وجود كل ما سوى الحق ما دام محتجبا بظلمة الأكوان عن رؤية نور مكونها)[3]٠

ويعبر النقشبندي أيضا عن هذا المصطلح بقوله: (المدد الوجودي هو وصول كل ما يحتاج إليه الممكن في وجوده على الولاء حتى يبقى؛ فإن الحق يمده من النفس الرحماني بالوجود متى يترجح وجوده على عدمه الذي هو مقتضى ذاته بدون موجده وذلك في التحلل وبدله من الغذاء والتنفس ومدده من الهواء ظاهر محسوس،وأما في الجمادات والأفلاك والروحانيات فالعقل يحكم بدوام رجحان وجودها من مرجحه، والشهود يحكم بكون كل ممكن في كل آن خلقًا جديدًا)[4]٠

وليس هذا المصطلح وحده هو المعبر عن هذا المعنى بل هناك مصطلحات أخرى مرادفة له تؤدى هذا المعنى مثل:

النفس الرحماني الذي هو: (الوجود الإضافي الوحداني بحقيقة

(١) سورة ق الآية ١٥ ونلاحظ هنا كما أسلفنا في خصائص المصطلح الصوفي أن الصوفية يحرصون على نسبة مصطلحهم إلى القرآن الكريم٠

(٢) القاشاني: لطائف الإعلام جـ٢ صـ٢٨٥ ٠

(٣) القاشاني: لطائف الإعلام جـ٢ صـ٢٨٥ ٠

(٤) النقشبندي: جامع الأصول صـ١٧١ ٠

المتكثر بصور المعاني التي هي الأعيان وأحوالها في الحضرة الواحدية، سمي به تشبيها بنفس الإنسان المختلف بصور الحروف مع كونه هواء ساذجًا في نفسه ونظرًا إلى الغاية التي هي ترويج الأسماء الداخلة تحت حيطة اسمه الرحمن عن كربها، وهو كون الأشياء فيها وكونها بالقوة كلزوم الإنسان بالتنفس)[1].

ومثل مصطلح الخلق الجديد الذي يتحدث عنه القاشاني قائلاً: (إن كل ما سوى الحق ـ تعالى ـ من جميع مخلوقاته الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية لا بقاء لشيء منها، بل هي متجددة الوجود لحظة بلحظة، فهي لا تزال في فناء يعقبه بقاء هكذا دائما مع الأنفاس دنيا وآخرة؛ لاستحالة استغناء ما سوى الحق ـ تعالى ـ عن إمداده بالتبعية، فلولا تجدد الفناء والبقاء لكان الإمداد تحصيلاً للحاصل؛ لأنه يكون إبقاءً للباقي وإيجادًا للموجود وذلك محال) [2].

فالمدد الوجودي وما في معناه يدل على أن الله ـ تعالى ـ يعطي كل موجود ويمد كل مخلوق إمدادًا دائمًا بما يكون سببًا لبقائه ووجوده وهذا من مقتضيات التدبير والهيمنة.

---

(١) نفس المصدر صـ١٧٩، وراجع: المناوي: التوقيف صـ٧٠٧ .

(٢) القاشاني: لطائف الإعلام جـ١ صـ٤٥٠ .

٢ - **الأمر الوحداني**:

وهـو عنـد الصـوفية: (عبـارة عـن تـأثيره الوحـداني بإفاضـة الوجـود المنبسـط علـى الممكنـات القابلـة الظـاهرة بـه، والمظهـرة إيـاه متعـددًا متنوعًـا بحسب ما اقتضته حقائقها المتعينة في العلم الأزلي) [١]٠

ويقصد الصوفية أيضًا بهذا المصطلح: (إذن المشيئة العامة لجميع المكونـات، وهو رد الأشياء إلـى مشيئة الله ـ تعالى ـ فـي الحركـة والسكون بمعنى، لا تتحرك ذرة ولا تسكن إلا بإذنه) [٢]٠

٣ - **أدنى مراتب التجريد**:

أي أن من معتقدات الصوفية أنهم يجردون نسبة الأفعال من كل أحد إلا إلى الله ـ تعالى ـ الذي لا فاعل غيره٠

يقول ابن الفارض في التائية الكبرى:

وكـل الـذي شـاهدته فعـل واحـد ∴ بمفـــرده لكـــن بحجـــب الأكنـــة

إذا مـا أزال السـتر لـم تـر غيـره ∴ ولـم يبـق بالأشـكال أشـكال ريبـة

وهـذان البيتـان لمـن فهمهمـا همـا مقـام سـادات العـارفين، وذلـك رؤيـة الفعل للواحد سبحانه) [٣]٠

---

(١) لطائف الأعلام جـ١ صـ٢٣٥، وراجع رسائل ابن عربي جـ٢ صـ٥٥.

(٢) رفيق العجم: مصطلحات التصوف صـ٦٢ ٠

(٣) التلمساني: شرح التائية الكبرى لابن الفارض صـ٢٩٩ بتحقيق د.جوزيني سكاتولين . طبعة دار الكتب والوثائق بالقاهرة ٢٠١٦م٠

ويذكر القاشاني أن المقصود بهذا المصطلح هو (تجريد الأفعال للحق وحده بحيث لا ترى في الكون فاعلاً إلا الحق، فلا مشارك له)[١].

٤ - النور:

(هو اسم من أسماء الله تعالى وتجليه باسم الظاهر ـ أعني الوجود الظاهر في صور الأكوان كلها ـ وقد يطلق على كل ما يكشف المستور من العلوم الذاتية والواردات الإلهية التي هي تطرد الكون عن القلب)[٢].

والنور هو (الوجود وهو له ـ تعالى ـ وليس لنا منه شيء، وهو يظهر في الإمكان العدمي الذي لم يشم رائحة الوجود الحق، وهو باق على إمكانه فينا، فإذا ظهر الحق بشيء من الممكنات أزالها ثم هي تبقى على أماكنها حسب المراتب المتعينة فيها)[٣].

ويلحق به مصطلح النور الوجودي وهو: (تجلي الحق باسمه الظاهر في أعيان الكائنات وصور حقائق الموجودات)[٤].

٥ - سر القدر:

السر عند الصوفية هو (حصة كل موجود من الحق بالتوجه الإيجادي المنبَّه عليه بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ**﴾[٥].

---

(١) لطائف الأعلام جـ١ صـ١٨٧ .

(٢) النقشبندي: جامع الأصول صـ٨٢ .

(٣) رفيق العجم: مصطلحات التصوف الإسلامي صـ٩٩٨ .

(٤) مصطلحات التصوف الإسلامي جـ٢ صـ٣٦٥ .

(٥) سورة النحل من الآية (٤٠).

وأما سر القدر فمعناه: (هو ما علمه الله من كل عين في الأزل مما انطبع فيها من أحوالها التي تظهر عليها عند وجودها، فلا يحكم على شيء إلا بما علمه من عينه في حال ثبوتها)[١].

٦ - اليدان:

يعبر بهذا المصطلح عند الصوفية عن (الحضرتين اللتين هما حضرة الوجوب والإمكان، فحضرة الوجوب إحدى يديه الباسطة بالرحمة وباعتبار اختصاص هذه الرحمة بالذين يتقون ويؤتون الزكاة من قابلياتهم كانت هذه هي اليد اليمنى، وكانت حضرة المعلومات والإمكان الأخرى، ومن جهة أن بركة جميع الكمالات الإسمائية المحبوبية لعينها وظهورها متعلقة بهما جميعا كانت كلتا يديه يمينًا مباركة نظرًا إلى الكمال الحقيقي لا النسبي)[٢].

هكذا رأينا من مصطلحات هذا النوع من نوعي التدبير والعناية كيف أن الصوفية يعبرون بمصطلحاتهم المتعددة الألفاظ عن معاني قريبة بل تكاد تكون متحدة، وهي أن الحق وحده هو الذي يعطي كل الوجود عاقله وغير عاقله أسباب وجوده ويمده بها باستمرار واتصال، ويبسط نعمه على كافة خلقه ولا يقدر على هذا العطاء غيره.

وبوسعنا أن ننظر في تلك المصطلحات في ميدان اللغة والشرع لنرى هل اقترب الصوفية عنهما أم ابتعدوا.

---

(١) لطائف الأعلام جـ٢ صـ٤١٧ .

(٢) لطائف الإعلام جـ٢ صـ٤٠٣ .

١ - مصطلح المدد الوجودي من منظور لغوي:

تقدم أن هذا المصطلح يفيد الصلة والعطاء المتعاقب والزيادة المتوالية بمعنى أن يوصل الله ــ تعالى ــ إلى كل موجود ما قدره له من مقومات وجوده.

وبالرجوع إلى المعاجم اللغوية وجدنا أن هذه المعاني هي ذاتها التي يدور حولها لفظ المدد.

يقول ابن فارس: (الميم والدال أصل واحد يدل على اتصال شيء بشيء في استطالة تقول: مددت الشيء أمُده مدًا، ومد النهر ومده نهر آخر أي: زاد فيه وواصله فأطال مدته) [١].

ويقول الجوهري: (مددت الشيء فامتد، والمادة الزيادة المتصلة، ومد الله في عمره أي أمهله) [٢].

وفي المصباح المنير: (مد غيره مدًا يعني: زاده) [٣].

ومن المعاني المشهورة للفظ المدد: أنه النصر، يقول الفيروزابادي: (الإمداد أن تنصر الأجناد بجماعة غيرك والإعطاء والإغاثة)[٤]، (والمدد ما أمددت به قومًا في الحرب، ومددت القوم صرت لهم مددًا وأمددناهم بغيرنا، والمادة كل شيء يكون مددًا لغيره)[٥].

---

(١) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة جـ٥ صـ٢١٦ .

(٢) الجوهري: الصحاح جـ٣ صـ٢٢٣ .

(٣) المصباح المنير جـ٢ صـ٥٦٦ .

(٤) القاموس المحيط جـ١ صـ٤٠٦ .

(٥) ابن عباد: المحيط في اللغة جـ٢ صـ٢٤٠ .

ويقول المطرزي: (المدد ما يمد به الشيء أي يزاد ويكثر ومنه: أمد الجيش بمدد إذا أرسل إليه زيادة[1] قيل:

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد ∴ فيه مع النصر ميكال وجبريل[2]

ويشير الزمخشري أيضًا إلى معنيين من معاني لفظ المدد وهما الزيادة والعطاء، فالزيادة كما تقول: (أمددت الإداوة بالمداد، والدهن مداد السراج، قال الأخطل:

رأوا بارقات بالأكف كأنها ∴ مصابيح سُرج أوقدت بمداد) [3]

وأما العطاء فكما تقول: (أمد الجيش: أي ضم إليه ألف رجل مددًا واستمدوا الأمير فأمدهم)[4].

إذن: دار معنى المدد في اللغة أيضًا كما هو عند الصوفية حول العطاء والزيادة.

مصطلح المدد من منظور شرعي:

كما مر عند الصوفية أن المدد أن يعطي الله ـ تعالى ـ لكل موجود أسباب وجوده ومقومات صلاحه، وهذا هو نفس المعنى الذي ورد به لفظ المدد في القرآن الكريم وفي السنة النبوية.

---

(١) المغرب في ترتيب المعرب جـ٢ صـ٢٦٠ .

(٢) الجوهري: الصحاح جـ٨ صـ٤٣٣ .

(٣) الزمخشري: أساس البلاغة جـ١ صـ٥٨٥ .

(٤) أساس البلاغة جـ١ صـ٥٨٥ .

ففي القرآن الكريم وجدنا مجموعة من الآيات يأتي فيها لفظ المدد مفيدًا معنى العطاء والزيادة، مثل قوله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[1].

قال الرازي في تفسيرها: (أي أنه ـ تعالى ـ يمد الفريقين بالأموال ويوسع عليهما في الرزق، مثل الأموال والأولاد وغيرهما من أسباب العز والزينة في الدنيا؛ لأن عطاءنا ليس يضيق عن أحد مؤمنًا أو كافرًا؛ لأن الكل مخلوقون في دار العمل فوجب إزاحة العذر وإزالة العلة عن الكل وإيصال متاع الدنيا إلى الكل على القدر الذي يقتضيه الصلاح، فبين ـ تعالى ـ أن عطاءه ليس بمحظور أي غير ممنوع)[2].

ويقول الزمخشري: (نمد كل واحد من الفريقين أي نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مددًا للسالف لا نقطعه، فنرزق المطيع والعاصي جميعًا على وجه التفضل، وما كان عطاء ربك وفضله محظورًا أي ممنوعًا)[3].

ويقول البيضاوي: (كل واحد من الفريقين نمد بالعطاء مرة بعد أخرى، ونجعل آنفه مددًا لسالفه من عطاء ربك أي من معطاه، وما كان عطاء ربك محظورًا ممنوعًا لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا كافر تفضلاً) [4].

---

(١) سورة الإسراء آية: ٢٠ .

(٢) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب جـ١٠ صـ٢٧ .

(٣) الزمخشري: الكشاف جـ٢ صـ٦٥٦ .

(٤) البيضاوي: أنوار التنزيل جـ٣ صـ٢٥١ .

ومـن الآيـات أيضًـا قولـه ـــ تعـالى ـــ: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾[1] قـال الطبـري المعنـى (زدنـا فيمـا أعطينـاكم مـن الأموال والبنين)[2] أي أن معنى المدد هنا هو العطاء والزيادة.

ومن الآيات أيضًا قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[3].

قال ابن الجوزي: (أصل المدد والمداد من الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء، وإنما لم تنفد كلمات الله لأن كلامه صفة من صفات ذاته ولا يتطرق على صفاته النفاد، ولو جئنا بمثله مددًا، أي بمثل البحر مددًا أي زيادة، والمدد كل شيء زاد في شيء) [4].

وقال البيضاوي: (المدد الزيادة والمعونة) [5].

وكـذلك قولـه ـــ تعـالى ـ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[6].

وهكذا دلت تلك الآيات الكريمة على أن المدد بمعنى أن يزاد شيء في شيء أو أن يعطي شيء شيئًا.

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٦ .

(٢) الطبري: جامع البيان جـ صـ

(٣) سورة الكهف آية ١٠٩ .

(٤) ابن الجوزي: زاد المسير جـ٣ صـ١١٤ .

(٥) البيضاوي: أنوار التنزيل جـ٣ صـ٢٩٥ .

(٦) سورة لقمان آية ٢٧ .

وكذلك ثبت في السنة المشرفة استعمال النبي ﷺ للفظ المدد بمعنى توالي العطاء والزيادة.

ففي صحيح مسلم عن ثوبان أن النبي ﷺ قال: [إني لبُعْقُر حوضي أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاي حتى يرفضّ عليهم، فسُئل عن عرضه فقال: من مقامي إلى عمّان، وسئل عن شرابه فقال: أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل، يَغُتُّ فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق](1).

قال القرطبي المحدث: (يَغُتُّ بالغين المعجمة وبالمثناة فوق معناه: الصيب المتوالي المتتابع وأصله اتباع الشيء بالشيء يعني أنه يصب دائمًا متتابعًا صبًا شديدًا سريعًا) (2).

فالمدد أيضًا في الشرع هو العطاء والزيادة والتتابع والتوالي فيهما.

٢ - مصطلح الأمر الوحداني من منظور لغوي: يذكر ابن فارس عدة معانى لكلمة أمر، ومن أهمها هذا المعنى الذي يتوافق مع معنى هذا المصطلح عند الصوفية وهو: أمر الله ــ تعالى ــ بمعنى تأثيره في الوجود.

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام مسلم في صحيحه باب إثبات حوض نبينا وصفاته رقم ٦١٣٠.

(٢) القرطبي المحدث: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم جـ١٩ صـ٣٢، وراجع: النووي: المنهاج جـ١٥ صـ٦٠.

فمعنى الأمر: (هو نقيض النهي، قولك: افعل كذا، قال الأصمعي: يقال: لي عليك إمره مطاعة أي: لي عليك أن آمرك مرة واحدة فتطيعني، ومن هذا الباب، الإمرة والإمارة، وصاحبها أمير ومؤمَّر)[١]٠

ويقول الفيروزآبادي: (الأمر: لفظ عام للأفعال والأقوال والأحوال كلها ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[٢] ويقال للإبداع: أمر، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٣] وحمل بعضهم قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[٤] على الإبداع، أي هو من إبداعه، ويختص الله بذلك دون الخلائق)[٥]٠

مصطلح الأمر من منظور شرعي: لقد استخدم الصوفية هذا المصطلح ـ كما مر ـ بمعنى تأثير الله ـ وحده ـ في الخلق والإيجاد، ومنح الوجود العام لكل الموجودات، وذلك بحسب إرادته ومشيئته وإذنه وحده لا شريك له٠

وقد وجدنا في نصوص القرآن الكريم من الآيات الكثيرة التي تدل على نفس المعنى٠

فالأمر في آيات القرآن الكريم يدل على الخلق والإبداع، بل على سرعة الإيجاد بأسرع مما يتخيله الوهم الإنساني٠

---

(١) معجم مقاييس اللغة جـ١ صـ١٣٧ ٠

(٢) سورة هود من الآية ١٢٣ ٠

(٣) سورة الأعراف من الآية ٥٤ ٠

(٤) سورة الإسراء من الآية ٨٥ ٠

(٥) بصائر ذوي التميز جـ٢ صـ٣٩ ٠

فمن آيات القرآن ما يدل على أن الأمر يدل على عموم الأحوال والأقوال والأفعال، وأن ذلك كله بيد الله، قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[1].

قال الإمام الماتريدي: (إليه يرجع أمر الخلق كله وتدبيرهم)[2].

ويقول الفخر الرازي: (والمراد أن مرجع الكل إليه، وإنما يكون كذلك لو كان مصدر الكل ومبدأ الكل هو هو، والذي يكون مبدأ لجميع الممكنات وإليه يكون مرجع جميع المحدثات والكائنات، كان عظيم القدرة، نافذ المشيئة قهارًا للعدم بالوجود والتحصيل جبارًا له بالقوة والفعل والتكميل) [3].

ومن الآيات أيضًا التي لها صلة وثيقة بمعنى الخلق والإيجاد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4] ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[5].

(فالإشارة هنا إلى إبداعه الذي يختص به دون الخلائق، وعبر عنه بأقصر لفظ وأبلغ ما يتقدم به فيما بيننا بفعل الشيء وعلى ذلك قوله تعالى:

(١) سورة هود من الآية ١٢٣ .

(٢) الماتريدي: تأويلات أهل السنة جـ٦ صـ٢٠٣ .

(٣) الرازي: مفاتيح الغيب جـ١٨ صـ٤١٤ .

(٤) سورة يس آية ٨٢ .

(٥) سورة النحل آية ٤٠ .

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[1] فعبر عن سرعة إيجاده بأسرع ما يدركه وهمنا)[2].

ويقول القاسمي: (إنما أمره أي شأنه الأعلى أو قوله النافذ إذا أراد شيئًا أي إذا تعلقت إرادته بإيجاد شيء أن يقول له كن فيكون أي يوجده عن أمره[3].

وقد جاءت الآيات مصرحة بأن الإبداع يكون بأمر الله وحده لا شريك لـه، فقال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4] والمعنى المراد من هذه الآية (سرعة نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء وأنه ـ تعالى ـ يخلق الأشياء لا بفكرة ومعاناة وتجربة)[5].

٣ - مصطلح أدنى مراتب التجريد من منظور لغوي: قد مر أن هذا المصطلح عند الصوفية معناه عدم نسبة أي شيء إلى أي أحد إلا لله . عزوجل ـ فلا فاعل في الكون ولا مؤثر في الوجود سواه، أي أن التجريد عدم رؤية سوى الواحد ـ جل في علاه ـ ففعله في كونه واضح جليّ.

وقد وجدنا نفس هذا المعنى في اللغة أيضًا.

يقول ابن فارس: (الجيم والراء والدال أصل واحد وهو بُدُوّ ظاهر الشيء، حيث لا يستره ساتر، ثم يحمل عليه غيره مما يشاركه في معناه،

---

(١) سورة القمر آية ٥٠ .

(٢) الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز جـ٢ صـ٣٩ .

(٣) القاسمي: محاسن التأويل جـ٨ صـ١٩٧ .

(٤) سورة البقرة آية ١١٧ .

(٥) الرازي: مفاتيح الغيب جـ٢صـ٣١٤ وراجع تفسير البيضاوي جـ١صـ١٠٣ .

ومنـه: الأرض الجَرَدُ: الفضـاء الواسـع سمـي بـذلك لبـروزه وظهـوره وألا يسـتره شيء) [1].

ويقال: (تجرد فلان بالحج أي أفرده ولم يقرن) [2].

(وتجردت السنبلة وانجردت خرجت من لفائفها) [3].

وبذلك يظهر أن معنى التجريد في اللغة هو الوضوح والبروز وكذلك هو التفرد بصفة واحدة لا يشاركها غيرها.

مصطلح أدنى مراتب التجريد من منظور شـرعي: روى عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: (جردوا القرآن لا تلبسوا به ما ليس منه) [4].

وروي أن أبا العافية كان يكره الجمل التي تكتب في المصاحف فاتحة وخاتمة وقال: جردوا القرآن)[5].

والمقصود بتجريد القرآن معنيان: إما أن يكون جردوه بمعنى أفردوه في التلاوة، ولا تخلطوا به غيره، وإما أن يكون جردوه في الخط من التعشير والنقط[6].

---

(١) مقاييس اللغة جـ١ صـ٤٥٢ .

(٢) مقاييس اللغة جـ١ صـ٤٥٢ .

(٣) لسان العرب جـ٣ صـ١١٥ .

(٤) معجم الطبراني جـ١٠ صـ١١٦ رقم ٩٦٣٨ .

(٥) مصنف ابن أبي شيبة جـ٢ صـ٣٩ رقم ٨٥٥١ .

(٦) شرح الوقاية جـ٦ صـ١٨٦ .

وبهذا يظهر أن معنى التجريد عند الصوفية هو نفس المعنى المستخدم في اللغة وهو نفس المعنى الوارد في ذلك الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٤ - مصطلح النور من منظور لغوي: قال ابن الأثير: (الظاهر لنفسه المظهر لغيره يسمى نورًا، وفي أسماء الله ـ تعالى ـ النور هو الذي يبصر بنوره ذو العماية ويرشد بهداه ذو الغواية) [١].

(والنور الضياء، والنور ضد الظلمة، والنور الضوء أيًا كان)[٢].

وقال ابن فارس: (النون والواو والراء أصل صحيح يدل على إضاءة واضطراب وقلة ثبات منه النور والنار، سميا بذلك من طريق الإضاءة؛ ولأن ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة) [٣].

مصطلح النور من منظور شرعي: تقدم أنه عند الصوفية الذي يجلي الموجودات ويظهر الكائنات بما أفاض عليها من حقائق الوجود.

وهذا المعنى هو الذي صرحت به آيات القرآن الكريم وأشهرها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٤].

يقول الآلوسي: (وجَوَّز بعض المحققين كون المراد من النور في الآية الموجد، كأنه قيل الله موجد السماوات والأرض، ووجه ذلك بأنه مجاز مرسل

---

(١) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر جـ٥ صـ٢٦٥ .

(٢) لسان العرب جـ٥ صـ٢٤٠ .

(٣) مقاييس اللغة جـ٥ صـ٣٦٨ .

(٤) سورة النور من الآية ٣٥ .

باعتبار لازم معنى النور وهو الظهور في نفسه وإظهاره لغيره، وقيل هو استعارة، والمستعار منه النور بمعنى الظاهر بنفسه المظهر لما سواه، والمستعار له الواجب الوجود الموجد لما عداه.

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنه قال: الله نور السماوات والأرض أي: هادي أهل السماوات والأرض، وهو وجه حسن، وفي رواية أخرى عنه ﷺ فسر النور بالمدبر، فقال: الله نور السماوات والأرض يدبر الأمر فيهما، وروى ذلك عن مجاهد أيضًا وجعل ذلك بعضهم من التشبيه البليغ، ووجه الشبه كون كل من التدبير والنور سبب الاهتداء إلى المصالح)[1].

وقال البيضاوي في تفسيرها: (المعنى: منور السماوات والأرض بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار، أو بالملائكة والأنبياء، أو مدبرهما من قولهم للرئيس الفائق في التدبير: نور القوم؛ لأنهم يهتدون به في الأمور، أو موجدهما فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره، وأصل الظهور هو الوجود كما أن أصل الخفاء هو العدم والله ــ سبحانه وتعالى ــ موجود بذاته موجد لما عداه)[2].

وقد استفاض الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة فقال: (فقوله ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي ذو نور السماوات والأرض، والنور هو الهداية ولا تحصل إلا لأهل السماوات والأرض، والحاصل أن المراد الله هادي أهل السماوات والأرض، وهو قول ابن عباس والأكثرين ـ رضي الله عنهم ـ وقيل

(١) الآلوسي: روح المعاني جـ١٣ صـ٤٣٥ .

(٢) البيضاوي: أنوار التنزيل جـ٤ صـ١٠٧ .

المراد أنه مدبر السماوات والأرض بحكمة بالغة وحجة نيرة، فوصف نفسه بذلك كما يوصف الرئيس العالم بأنه نور البلد، فإنه إذا كان مدبرهم تدبيرًا حسنًا فهو لهم كالنور الذي يهتدي به إلى مسالك الطرق، قال جرير:

وأنت لنا نور وغيث وعصمة

وهذا اختيار الأصم والزجاج.

وقيل المراد ناظم السماوات والأرض على الترتيب الأحسن؛ فإنه قد يعبر بالنور عن النظام كما يقال: لا أرى لهذا الأمر نورًا)[1].

وأيضًا قد وردت السنة المشرفة بما يدل على نفس المعنى ومن ذلك قوله ﷺ: [كان الله ولا شيء فخلق المقادير وخلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل] [2].

٥ - **مصطلح سر القدر من منظور لغوي**: السر (الذي يكتم، والجمع أسرار، والسريرة مثله، والجمع السرائر)[3].

(والأصل في السر تغطية الشيء بغطاء) [4].

وقيل: (السر ما يكتم، وهو خلاف الإعلان والجمع الأسرار، وأسررت الحديث إسرارًا: أخفيته) [5].

---

(١) الرازي: مفاتيح الغيب جـ٢٣ صـ٣٧٩ .

(٢) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في أحاديث الرسول جـ٤ صـ١٤٠ .

(٣) تاج اللغة جـ٢ صـ٦٨١ .

(٤) الفروق اللغوية جـ١ صـ٤٤٨ .

(٥) المصباح المنير جـ١ صـ٢٧٣ .

وقيل: (السر خلاف العلانية، وسر كل شيء خالصه) [١].

مصطلح السر من منظور شرعي: تقدم أن معناه عند الصوفية ما علمه الله ـ تعالى ـ من أحوال كل الكائنات في الأزل، أي في حال خفائها وعدم ظهورها للوجود يعلم الله ـ تعالى ـ إذا وجدت كيف تكون وعلى أي حال تكون، فالسر يدل على الخفاء والكتمان، وهذا هو المعنى نفسه الذي استعمله القرآن الكريم لهذه اللفظة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٢].

قال الإمام الماتريدي: (قوله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي يعلم الأعمال الخفية والسرية من أهل السماوات والأرض، أي يعلم الكوائن التي في السماوات والأرض وخفياتها)[٣].

وقال الزمخشري: (أي يعلم كل سر خفي في السموات والأرض)[٤].

وقيل: (معرفة السر في السموات معناه: السر في ارتباط أجزائها وبنائها من غير عمد وذلك وحده دليل القدرة الباهرة وإشارة إلى التكوين العجيب في صنعه)[٥].

(١) جمهرة اللغة جـ٥ صـ١٢٥ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٦ .

(٣) الماتريدي: تأويلات أهل السنة جـ٨ صـ٧ .

(٤) الزمخشري: الكشاف جـ٣ صـ٢٦٥ .

(٥) الشيخ أبوزهرة: زهرة التفاسير جـ١٠ صـ٥٢٥٠ .

٦ - مصطلح اليدان من منظور لغوي:

لقد وجدنا في معاجم اللغة ومصادرها ما يؤيد استعمال الصوفية لهذا المصطلح في معنى انبساط قدرة الله ونعمته بالعطاء والرحمة، وملكه لكل شيء وقدرته عليه.

ومن ذلك:

. اليد بمعنى النعمة: قال ابن منظور: (اليد: النعمة والإحسان يصطنعه والمنة، وإنما سميت يدًا لأنها إنما تكون بالإعطاء، والإعطاء إنالة باليد) [١].

ومنه قول الشاعر:

فلن أذكر النعمان إلا بصالح ∴ فإن له عندي يَديًا وأنعما

وقول الآخر:

تكن لك في قومي يد يشكونها ∴ وأيدي الندى في الصالحين قروض[٢]

واليد: القوة: (يقال: أيده الله أي قواه، ومالي بفلان يدان أي: طاقة، ومنه قول الشاعر:

فاعمد لما يعلو فما لك ∴ بالذي لا تستطيع من الأمور يدان

أي قوة وطاقة[٣].

واليد: الغنى والقدرة: (يقال: لي عليك يد أي قدرة) [٤].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب جـ١٥ صـ٤١٩ .

(٢) لسان العرب جـ١٥ صـ٤١٩ .

(٣) لسان العرب جـ١٥ صـ٤١٩ .

(٤) نفسه جـ١٥ صـ٤١٩ .

مصطلح (اليدان) من منظور شرعي:

اليــــدان: هذا المصطلح عند الصوفية معناه قدة الله ـ تعالى ـ المبسوطة بالرحمة لمن يستحقها ولمن يختصه الله ـ تعالى ـ بها وباعتبار أن كل أفعاله رحمة ولطف فإن كلتا يديه يمين.

وهو من المعاني التي ذكرناها في اللغة.

وهذا المعنى هو ما وجدناه في آيات القرآن الكريم وأحاديث النبيﷺ.

مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾[1].

ففي هذه الآية الكريمة زعم اليهود زعمًا باطلاً أن الله يبخل عليهم فيمنعهم فضله ويحبس عنهم رزقه وعطاءه كالمغلولة يده الذي لا يقدر أن يبسطها بعطاء ولا بذل معروف تعالى الله عما يقول أعداء الله.

فقال الله مكذبهم ومخبرهم بسخطه عليهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمسكت أيديهم عن الخيرات، وقبضت عن الانبساط بالعطيات، ولعنوا بما قالوا، وأبعدوا عن رحمة الله وفضله بالذي قالوا من الكفر، وافتروا على الله ووصفوه به من الكذب والإفك.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ بالبذل والإعطاء وأرزاق عباده وأقوات خلقه غير مغلولتين ولا مقبوضتين، ينفق كيف يشاء يعطي هذا ويمنع هذا[2].

---

(١) سورة المائدة من الآية ٦٤ .

(٢) راجع الطبري: جامع البيان جـ١٠ صـ٤٥١ .

وقال ابن جزي: (﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ عبارة عن إنعامه وجوده، وإنما ثنيت اليدان هنا وأفردت في قول اليهود ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ ليكون ردًا عليهم ومبالغة في وصفه ـ تعالى ـ بالجود، كما تقول العرب: فلان يعطي بكلتا يديه إذا كان عظيم السخاء)[1].

وقد ذُكرتْ صفة اليد منسوبة إلى الله ـ تعالى ـ في القرآن كثيرًا مرة بالإفراد مثل قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾[2] ومرة بالتثنية مثل قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[3] ومرة بالجمع مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾[4].

ومعلوم أن مذهب أهل السنة نفى الجارحة وكل ما يوهم التشبيه أو المماثلة بين الله ـ تعالى ـ وبين الحوادث، فيحمل لفظ اليد في كل نص بما يليق بالإطلاق على الله ـ تعالى ـ مثل القدرة أو النعمة أو الاختصاص بالفعل، أو على حد قول الرازي (اليد في حق الله يمتنع أن تكون بمعنى الجارحة وأما سائر المعاني فحاصلة)[5].

وفي السنة أيضًا استعملت الأحاديث النبوية الشريفة لفظ اليد بما يدل على الرحمة والنعمة والملك والتدبير .

(١) ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل جـ١ صـ٢٣٨ .

(٢) سورة الفتح من الآية ١٠ .

(٣) سورة ص من الآية ٧٥ .

(٤) سورة يس من الآية ٧١ .

(٥) الرازي: مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٣٩٥ .

ومن ذلك قوله ﷺ : (المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم.... الحديث)[1].

قال السيوطي: (وهم يد على من سواهم: أي هم مجتمعون على أعدائهم لا يسعهم التخاذل بل يعاون بعضهم بعضا على جميع الأديان والملل) [2].

ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: (عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط)[3].

قال ابن الأثير: (أراد بيد الله: سكينته وأمنه ورحمته) [4].

وقد ورد في السنة أيضًا وصف الله تعالى باليدين وبأن كلتا يديه يمين مثل قوله ﷺ: [إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا] [5].

ومعنى كلتا يديه يمين (أن كلاً من خلق الخير والشر والإيمان والكفر من الله عدل وحكمة؛ لأنه عزيز يتصرف في ملكه كيف يشاء لا مانع له فيه

---

(١) هذا الحديث رواه الترمذي في المستدرك على الصحيحين. كتاب قسم الفيء جـ٢ صـ١٥٣ رقم ٢٦٢٣.

(٢) السيوطي: شرح سنن النسائي جـ٨ صـ١٧.

(٣) ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول جـ٩ صـ١٩٦.

(٤) نفس المصدر جـ٨ صـ١٩٦.

(٥) هذا الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه باب فضيلة الإمام العادل جـ٦ صـ٧ رقم ٤٨٢٥.

ولا منازع، حكيم يعلم بلطف حكمته ما يخفى على الخلق، يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم.

فمعنى اليمين كما في قول الشاعر:

إذا ما راية رفعت لمجد .:. تلقاها عرابة باليمين

أي بتدبيره الأحسن وتحريه الأصوب، وإذا حملتا ـ أي اليدين على النعمة كانت اليمين المبسوطة عبارة عن منح الألطاف وتيسير اليسرى على أهل السعادة من أصحاب اليمين) [(١)].

وقد ظهر من هذا أن الاستعمال الصوفي لمصطلح (اليدان) يوافق تمامًا ما جاء في اللغة من معانٍ ثم يصدقها الشرع قرآنًا وسنةً.

ثانيًا: مصطلحات خاصة بالمريد السالك في الطريق الصوفي بصفة خاصة:

١ - مصطلح التأنيس:

(يشيرون به إلى التجلي والظهور الكائن في المظاهر الحسية تأنيسًا للمريد في ابتداء أمره، ويسمى ذلك بالتجليات الفعلية ـ أيضًا ـ من جهة أن السالك أول ما يبدو له من التجليات إنما هو التجليات الفعلية، وبيان ذلك هو أن السالك إذ أخذ في تعديل قوى نفسه وآلاتها الظاهرة بمراعاة الطاعات وتجنب المعاصي، وفي تعديل قواها الباطنة بالتحلي بمكارم الأخلاق والاعتناء بالرياضة والسلوك المستقيم على مقتضى شرائطه حتى رقت حجب

---

(١) الملا علي القاري:مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح جـ١٣صـ٤٤٩.

نفسه وشفت لأجل ذلك، أو بأن يحصل له تلك الرقة واللطافة بحكم الفطرة والعناية الإلهية، فإنه من أول ما يظهر عليه إنما يكون الحب والتوحيد الفعلي، بحيث يبدو له في خلال ذلك الحسن والجمال الصوري أو المعنوي المنبئ عن الوحدة والعدالة بحكم التناسب والملاحة وحدة الفعل الساري في كل سبب وواسطة بما يظهر المسبب والمفعول، فيظهر له من جمعية وحدة الفعل فلكون رؤية المريد لا تكون أولاً إلا في مظهر حسي تأنيسًا له)[1].

معنى ذلك أن الله تعالى من لطفه ورحمته بالمريد السالك في طريقه يظهر له من المظاهر الحسية من أمور اللطف والرحمة تأنيسًا له وتثبيتًا وبثًا للطمأنينة في قلبه حتى تزول وحشته وتثبت قدماه في طريق الله.

٢ - السابقة:

هي العناية الأزلية المشار إليها في التنزيل بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾[2].

ويقول القاشاني في موضع آخر: (يعبرون بالسابقة عن العناية الأزلية المشار إليها في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ فإذا ظهر حكمها في شخص من الناس حصل في باطنه أثر النور الفطري الإيماني إما بواسطة سمعه أو بلا واسطة فآمن بربه وانقاد لحكمه)[3].

---

(١) لطائف الأعلام جـ١ صـ٢٩٨ .

(٢) سورة يونس من الآية ٢ .

(٣) لطائف الإعلام جـ٢ صـ٧ .

ويلحق بهذا المصطلح مصطلح آخر وهو «قدم الصدق» الذي هو عند الصوفية (السابقة الجميلة والموهبة الجزيلة التي حكم بها الحق تعالى لعباده الصالحين المخلصين في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ والصدق هو الخيار من كل شيء)[1].

٣ - **الفتوح**:

(هو ما يفتح على العبد من ربه تعالى بعدما كان مغلقًا عنه وذلك على أقسام:

فتوح العبارة: وهو الفتوح الذي يكون في الظاهر بحيث يصير صاحبه ممن يحسن منه العبارة عما يجده وذلك على مراتب أيضا فمنهم من هو أعلى فتحًا في عبارته وبعضهم دون ذلك على اختلاف المراتب.

فتوح الحلاوة: هو ما يُفتح على العبد في باطنه من أنواع العلوم والمعارف وتقريب الحق له وإن لم يظهر عليه شيء من ذلك.

فتوح المكاشفة: هو ما يُفتح على العبد من المكاشفات والمشاهدة التي لا مدخل لكسبه فيها.

فتح الروح: وهو الفتح الذي يعطي المعرفة وجودًا لا نقلاً ولا استدلالاً، بل شهودًا وعيانًا يغني عن نظر العقل وتعمله.

الفتح المبين: وهو أعلى الجميع وأكمل الفتوحات وأولاها وأشرفها وأتمها، إذ ليس وراءه غاية من جميع الفتوحات ويعني به فتح التجليات

(١) اصطلاحات الصوفية صـ١٤٤ وراجع: موسوعة مصطلحات التصوف صـ٧٥١ .

الحقيقية وكشف الأنوار الخفية من ضيق سجن الخَلْقية وهنالك الولاية لله الحق)[١].

٤ - **الاعتصام**:

يفهم الصوفية هذا المصطلح على حقيقته الواردة في القرآن الكريم، فيقولون عنه: الاعتصام: (هو الاحتماء، قال تعالى: ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ** ﴾ أي التجئوا إلى الله بسبب النجاة الذي هو حبل الله وهو القرآن المجيد ليحميكم من وقوع العذاب بكم)[٢].

هذا هو المعنى العام الذي يفهمه الصوفية وغيرهم، ولكن الصوفية يقسمون الاعتصام إلى أقسام وهي:

اعتصام العامة ويكون: (بالمحافظة على الطاعة مراقبة لأمر الله، بحيث يكون العبد إنما يعبد الله لأمره له بالعبادة، لا لما يرجوه من خير أخروي أو يخافه من شر كذلك، بل امتثالاً لأمر الله له لا غير، وهذا هو الاعتصام بحبل الله الذي هو سبب الوصول إليه)[٣].

اعتصام الخاصة وهو: (احتماؤهم بإرادته ــ تعالى ــ عن إرادتهم بانقطاع أنفسهم عن غرض الإرادات فلا يبقى لهم إرادة ويسمى بصون الإرادة المشار إليه في قول أبي يزيد: أريد ألا أريد)[٤].

---

(١) لطائف الإعلام جـ٢ صـ٢٠١ . ٢٠٢ .

(٢) نفس المصدر جـ١ صـ٢١٩ .

(٣) نفسه جـ١ صـ٢٢٠ .

(٤) لطائف الأعلام جـ١ صـ٢٢٠ .

اعتصام خاصة الخاصة وهو: (احتماء العبد بهوية الحق عن رؤية إنية يضيفها إلى نفسه أو إلى غيره من الخلق)[١].

اعتصام خلاصة خاصة الخاصة وهو: (أن يكون للعبد مع احتمائه بالهوية عن الإنية احتماءً بتأديب الحق له عن تضييع حقوق الربوبية وإهمال مقتضيات العبودية، كما هو عليه حال بعض المستهلكين تحت قهر سلطان التجليات الإلهية)[٢].

٥ - **التفويض:**

هو كِلَةُ الأمور كلها قبل الوقوع وبعده إلى مجريها علما بأنه أعلم بمصالحنا وأشفق علينا منا)[٣].

ويذكر النقشبندي أن التفويض هو: (ترك الأسباب بمعاينة الاضطرار، وعدم الاختيار، ودوام الافتقار، وانتفاء الاقتدار، بحيث لا يرى لسعيه أثرًا ولغير الله تأثيرًا تصديقًا لقوله ــ تعالى ــ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ ﴾ فيكون سيره مع المسبب لا مع نفسه وفعله)[٤].

وينقل الغزالي عن بعض مشايخه أن التفويض هو: (ترك اختيار ما فيه مخاطرة إلى المختار المدبر العالم بمصلحة الخلق لا إله إلا هو)[٥].

---

(١) نفس المصدر جـ١ صـ٢٢١ .

(٢) نفسه جـ١ صـ٢٢١ .

(٣) نفسه جـ١ صـ٣٣٨ .

(٤) النقشبندي: جامع الأصول صـ٤٩٥ .

(٥) الغزالي: منهاج العابدين صـ١٩ وراجع موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي صـ١٩١ .

وقال أبوعلي الدقاق: (التوكل ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل يسكن وعده وصاحب التسليم يكتفي بعمله وصاحب التفويض يرضى بحكمه، فالتوكل صفة الأنبياء والتسليم صفة إبراهيم الخليل، والتفويض صفة نبينا ﷺ)[1].

وبعد هذا العرض للمصطلحات السابقة عند الصوفية سننظر فيها نظرة لغوية ثم نظرة شرعية لنرى ما إذا كان الصوفية قد اقتربوا أو ابتعدوا عن ميداني اللغة والشرع.

١ - **مصطلح التأنيس من منظور لغوي**:

يقول ابن فارس: (الهمزة والنون والسين أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش)[2].

ويقول ابن منظور: (الأُنس خلاف الوحشة، وهو مصدر قولك: أنِست به بالكسر أُنسًا وأَنَسة، وفيه لغة أخرى وهي: أنَسْتُ به أُنسًا مثل: كفرت به كفرًا، والأنس والاستئناس هو: التأنس، ويقال: أنَست بفلان، والأُنس والإنس: الطمأنينة)[3].

مصطلح التأنيس من منظور شرعي: هو كما مر عند الصوفية: ما يظهره الحق تعالى للمريد في المظاهر الحسية من أمور اللطف ومظاهر الرحمة تأنيسًا له وتثبيتًا له، وإزالةً لوحشته حتى تثبت قدماه في طريق الله.

(١) بصائر ذوي التمييز جـ٥ صـ٢٧٠ .

(٢) مقاييس اللغة جـ١ صـ١٤٥ .

(٣) لسان العرب جـ٦ صـ١٠ .

وهو كذلك في آيات القرآن الكريم، حيث إن أصل الأنس هو إزالة الوحشة حسيًا ومعنويًا كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ﴾[١].

قال السمين الحلبي: (تستأنسوا: يجوز أن يكون من الاستئناس؛ لأن الطارق يستوحش من أنه هل يؤذن له أو لا؟ فيزال استيحاشه وهو رديف الاستئذان فوضع موضعه) [٢].

ويقول صاحب تفسير روح البيان: (الاستئناس بمعنى الاستعلام من أنس الشيء إذا أبصره مكشوفا فعلم به، فإن المستأذن مستعلم للحال مستكشف أنه هل يؤذن له أو لا.

وقيل هو من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش، لما أن المستأذن مستوحش خائف أن لا يؤذن له فإذا أذن له استأنس ولهذا يقال في جواب القادم المستأذن: مرحبًا أهلاً وسهلاً، أي: وجدت مكانًا واسعًا، وأتيت أهلاً لا أجانب، ونزلت مكان سهلاً لا حزنًا؛ ليزول به استيحاشه وتطيب نفسه) [٣].

(١) سورة النور من الآية ٢٧ .

(٢) السمين الحلبي: الدر المصون جـ٨ صـ٣٩٦ .

(٣) إسماعيل حقي: روح البيان جـ٦ صـ١٣٧ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾[١].

وتدل أحوال موسى عليه السلام أنه كان في خوف شديد ومحنة عظيمة، فقد كان في ظلمة الليل وبرد الشتاء، وقد ضل الطريق، وقيل قد جاء طلق الولادة لزوجه، وكل هذه أحوال تحتاج إلى أمن واطمئنان يزيل هذا الخوف وتلك المحنة، فظهرت له أنوار الله ـ تعالى ـ في صورة النار تطمينًا لقلبه وتهدئةً لنفسه.

قال جعفر الصادق: (أبصر نارًا دلته على الأنوار؛ لأنه رأى النور على هيئة النار، فلما دنا منها شملته أنوار القدس وأحاطت به جلابيب الأنس، فخاطبه الله بألطف خطاب واستدعى منه أحسن جواب، فصار بذلك مكلمًا شريفًا أُعطي ما سأل وأمن ممن خاف)[٢].

ولكن لماذا لم يظهر له النور مباشرة ويكلمه الله مباشرة؟ (الحكمة في ذلك: أن طبع الإنسان يميل إلى الأشياء المعهودة؛ لذلك تجلى النور في النار لاستئناسه بلباس الاستئناس، ولا تخلو النار من الاستئناس خاصة في الشتاء ـ وكان شتاء ـ فتجلى الحق بالنور في لباس النار؛ لأنه كان في طلب النار فأخذ الحق مراده وتجلى من حيث إرادته)[٣].

---

(١) القصص آية ٢٩ .

(٢) ابن عجيبة: البحر المديد جـ٤ صـ٢٤٨ .

(٣) البحر المديد جـ٤ صـ٢٤٩ .

فمصطلح الأنس إذن عند الصوفية يدل على ما يظهره الله . تعالى ـ ويكشفه لعبده السالك في طريقة من دلائل الرحمة وعلامات اللطف ليطمئن قلبه، وهو نفس المعنى الموجود في اللغة وهو كذلك المعنى الذي تدل عليه نصوص الشرع.

٢ - **مصطلح السابقة من منظور لغوي**: (السبق القُدْمة في الجري وفي كل شيء، وقد سبقه يسبقه سبقًا: تقدمه)[١].

ويقول ابن فارس: (السين والباء والقاف أصل واحد صحيح يدل على التقديم)[٢].

ويذكر الفيروزآبادي أن معاني السبق كثيرة في اللغة وكذلك في القرآن الكريم ومن أشهرها (سبق الفضل والعناية، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ ﴾)[٣].

مصطلح السابقة من منظور شرعي: وقد تقدم أنها عبارة عن عناية الله ــ تعالى ــ بعبد من عباده في الأزل، أي أنه يكتب له الهداية السابقة على وجوده فإذا وُجد هداه الله، وتحققت تلك الهداية الأزلية وأصبحت واقعية.

وقد استشهد الصوفية بأية من القرآن تؤيد هذا المعنى وهي قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾[٤].

---

(١) لسان العرب جـ١٠ صـ١٥١ .

(٢) مقاييس اللغة جـ٣ صـ١٢٩ .

(٣) بصائر ذوي التمييز جـ٣ صـ١٨٤ .

(٤) سورة يونس من الآية ٢ .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (سبقت لهم السعادة في الذكر الأول يعني في اللوح المحفوظ) [1].

والواقع أن القرآن الكريم يؤيد الصوفية في هذا المصطلح سواء في إطلاقه أو في الاستدلال عليه.

فأما في إطلاقه، فإن معنى السبق أي تقدم الوعد من الله . عزوجل ـ لطائفة من عباده أن يجعلهم من أهل السعادة أو المقامات العالية قد ورد في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾[2].

قال الفخر الرازي: (الحسنى إما السعادة، وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق إلى الطاعة)[3].

وقال الآلوسي: (الحسنى هي السعادة، وقيل التوفيق للطاعة، والمراد من سبق ذلك تقديره في الأزل)[4].

وقال ابن عاشور: (السبق حقيقة تجاوز الغير في السير إلى مكان معين، ومنه سباق الخيل، واستعمل هنا مجازًا في ثبوت الأمن في الماضي يقال: كان هذا في العصور السابقة أي التي مضت أزمانها لما بين السبق

---

(١) تفسير الخازن جـ٢ صـ٤٢٧ .

(٢) سورة الأنبياء من الآية ١٠١ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ٢٢ صـ١٨٩ .

(٤) روح المعاني جـ٢ صـ٤٧٥ .

وبين التقدم من الملازمة، أي الذين حصلت لهم منا الحسنى في الدنيا، أي حصل لهم الإيمان والعمل الصالح من الله بتوفيقه وتقديره)[١].

وينقل ابن عجيبة عن الإمام الجنيد قوله: (سبقت لهم منا العناية في البداية فظهرت لهم الولاية في النهاية)[٢].

ومن الآيات التي ورد فيها السبق بهذا المعنى الذي استعمله الصوفية في هذا المصطلح قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[٣].

وقد فُسر السبق هنا على أنه (في الكتاب الأول أي تقدمت في الأزل، أو كتبت في اللوح المحفوظ، ثم إن السبق والتقدم الموقوف على الزمان إنما هو بالنسبة للإنسان، وإلا فإن الأمر بالإضافة إلى الله كائن على ما كان)[٤].

وجميع المفسرين على أن الكلمة السابقة في هذه الآية الكريمة هي قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[٥].

ومعناها أن الله قد حكم وكتب في كتابه الأول الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ولرسله ولعباده المؤمنين في الدنيا

(١) التحرير والتنوير جـ١٧ صـ١٥٥ .

(٢) البحر المديد جـ٣ صـ٥٠٢ .

(٣) سورة الصافات الآيات ١٧١، ١٧٢، ١٧٣ .

(٤) روح البيان جـ٧ صـ٤٩٧ .

(٥) سورة المجادلة الآية ٢١ .

والآخرة، وأن العاقبة للمتقين وهذا قدر محكم وأمر مبرم)[1]٠

هذا من ناحية استخدام المصطلح ذاته٠

أما من ناحية الاستدلال عليه فقد وجدنا أن استدلال الصوفية على معنى هذا المصطلح عندهم بهذه الآية التي أوردوها وهي قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾[2] استدلال صحيح٠

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره عن معنى قدم الصدق هنا (هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ، وهذا أليق الأقوال بالآية قال حسان بن ثابت:

لنا القدم العليا إليك وخلفُنا ∴ لأولنا في طاعة الله تابع

وقال ذو الرمة:

لكم قدم لا ينكر الناس أنها ∴ مع الحسب العادي طمت على البحر)[3]

وقال القرطبي: (قدم الصدق سبق السعادة في الذكر الأول)[4]٠

فاستدلال الصوفية بهذه الآية على صحة هذا المصطلح موافق لما ورد في اللغة حقيقة، وهو كذلك موافق لمعناها في القرآن والذي أجمع عليه المفسرون٠

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٨ صـ٥٤ ٠

(٢) سورة يونس من الآية ٢ ٠

(٣) المحرر الوجيز جـ٣ صـ٣٣٨ ٠

(٤) الجامع لأحكام القرآن جـ٨ صـ٣٠٦ ٠

٣ - **مصطلح الفتوح من منظور لغوي**: (الفتح نقيض الإغلاق)[١].

ويأتي الفتح بمعاني كثيرة من أهمها: (بمعنى القضاء والحكومة مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾[٢] أي حكمنا وقضينا، ويأتي بمعنى إرسال الرحمة مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ**﴾ أي ما يرسل، ومنها: النصرة، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ**﴾ أي بالنصرة، ومنها: فتح خزائن القدرة ﴿**وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ**﴾ ومنها: فتح أبواب النعمة، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ**﴾ ومنها فتح أبواب البركة مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ**﴾[٣].

مصطلح الفتوح من منظور شرعي: وقد تقدم أنه ما يفتح الله به لعبد من عباده وما يعطيه من أنواع الخير والرحمات المتوالية ظاهرًا وباطنا.

وقد وجدنا في نصوص الشرع ما يؤيد استعمال الصوفية لهذا المصطلح بهذا المعنى.

---

(١) لسان العرب جـ٢ صـ٥٣٦، ومقاييس اللغة جـ٤ صـ٤٦٩ .

(٢) سورة الفتح آية: ١ .

(٣) بصائر ذوي التمييز جـ٤ صـ١٦٢ .

ففي نصوص القرآن وجدنا اقتران الفتح بالرحمة في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾[(1)].

وقد أورد أبوالحسن الماوردي ثمانية أقوال في معنى الفتح بالرحمة هنا، وهـي الخيـر والمطـر والتوبـة والـوحي والـرزق والعافيـة والـدعاء والتوفيـق والهداية[(2)].

ويقول البيضاوي: (ما يطلق الله للناس من رحمة كنعمة وأمن وصحة وعلم ونبوة)[(3)].

ويلفت الزمخشري النظر إلى فائدة مجيء لفظ الرحمة هنا بالتنكير؛ وذلك ليعم كل رحمة ينعم بها الله على أحد من عباده فيقول: (أي شيء يطلق الله من رحمة أي من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها، وتنكيره الرحمة للإشاعة والإبهام، كأنه قال: من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية، فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها) [(4)].

ويذكر ابن عجيبة أن من معاني الرحمة المذكورة هنا ما يفتح به الله لقلوب أوليائه من الواردات والإلهامات والعلوم اللدنية، فيقول: (ما يفتح الله لقلوب عباده من نفحات وواردات وإلهامات وعلوم لدنية وحكم ربانية وتعرفات

---

(١) سورة فاطر من الآية ٢ .

(٢) راجع: النكت والعيون للماوردي جـ٤ صـ٤٦٣ .

(٣) أنوار التنزيل جـ٤ صـ٢٥٣ .

(٤) الكشاف جـ٣ صـ٥٩٦ .

جمالية وجلالية، فلا ممسك لها، بل الله يفتح على من يشاء ويسد الباب في وجه من يشاء) [1].

ومن الآيات التي فيها معنى الفتح بالخير قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فعلى الرغم من أن جماهير المفسرين يحملون الفتح هنا على أنه صلح الحديبية الذي أدى بعد ذلك إلى فتح مكة[2]، إلا أن منهم من يحمل الفتح على معنى أعم من ذلك ليشمل كل رحمة وهبها الله لنبيه محمد ﷺ فيكون معنى قوله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ أي (قضينا لك قضاءً بينًا، أكرمناك بالإسلام والنبوة وأمرناك أن تدعو الناس إليه)[3].

وإذا كان هذا هو معنى الفتح في القرآن الكريم فقد وجدنا نفس المعنى في السنة المشرفة أيضًا.

ومن الأحاديث الواردة في استعمال الفتح مقرونا بالرحمة ما ثبت أن النبي ﷺ [كان إذا دخل المسجد قال: رب افتح لي باب رحمتك وإذا خرج قال ربي افتح لي باب فضلك] [4].

بل كان النبي ﷺ يأمر المسلمين أن يطلبوا من الله عزوجل أن يفتح لهم أبواب رحمته، كما ورد في صحيح مسلم أنه ﷺ قال [إذا دخل أحدكم

(١) البحر المديد جـ٤ صـ٥١٥ .
(٢) راجع: البغوي: معالم التنزيل جـ٧ صـ٢٩٣ .
(٣) راجع السمرقندي: بحر العلوم جـ٤ صـ١٦٠ .
(٤) مسند الإمام أحمد جـ٢٦ صـ١٠٦ رقم ٢٦٤٥٩ .

المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك] [1]۰

وقد ذكر شراح الحديث أن السر في تخصيص الرحمة بالدخول والفضل بالخروج، أن من دخل اشتغل بما يقربه إلى ثوابه وجنته فناسب ذكر الرحمة، وإذا خرج اشتغل بابتغاء الرزق الحلال فناسب ذكر الفضل[2]۰

وهكذا فنصوص الشرع في الآيات والأحاديث تؤيد استعمال الصوفية لهذه المصطلح۰

٤ - مصطلح الاعتصام من منظور لغوي: يقول الأزهري: (العصمة في كلام العرب: المنع، وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه، واعتصم فلان بالله إذا امتنع به، واستعصم إذا امتنع وأبى)[3]۰

ويقول الفيروزآبادي: (عصم يعني منع ووقى، والاعتصام: التمسك بالشيء، قال تعالى: ﴿ **وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا** ﴾ وقال: ﴿**وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ** ﴾ أي من يمتنع بلطفه من المعاصي)[4]۰

ويقول ابن فارس: (العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة، والمعنى في ذلك كله معنى واحد، ومن ذلك العصمة،

---

(١) صحيح مسلم باب ما يقول إذا دخل المسجد جـ٢ صـ١٥٦ رقم ٧١٣ ۰

(٢) راجع: المباركفور: تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي جـ٣ صـ٢٤٩ ۰

(٣) تهذيب اللغة جـ٢ صـ٣٤ ۰

(٤) بصائر ذوي التمييز جـ٤ صـ٧٢ ۰

أي: أن يعصم الله ـ تعالى ـ عبده من سوء يقع فيه، واعتصم العبد بالله إذا امتنع واستعصم التجأ)[1].

مصطلح الاعتصام من منظور شرعي: قد مر أن الصوفية يفهمون هذا المصطلح على حقيقته الواردة في القرآن الكريم بمعنى: الالتجاء والاحتماء والاعتماد على الله وحده والتمسك به بل ويستدلون بالآية الكريمة ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[2].

وقد وجدنا في القرآن جملة من الآيات الكريمة وردت بنفس هذا المعنى، وتصحح استعمال الصوفية لهذا المصطلح مثل الآية المتقدمة في سورة آل عمران.

ومثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[5].

---

(١) مقاييس اللغة جـ٤ صـ٢٣١ .

(٢) سورة آل عمران من الآية ١٠٣ .

(٣) سورة النساء ١٤٦ .

(٤) سورة النساء ١٧٤ .

(٥) سورة الحج من الآية ٧٨ .

فقد أجمع المفسرون على أن الاعتصام بالله تعالى في هذه الآيات الكريمة معناه: الوثوق بالله عزوجل[١] والالتجاء إليه في جلب المصالح ودفع المضار [٢] والامتناع بطاعته من كل ما يخاف عاجلاً أو آجلاً[٣].

وهذه هي نفس المعاني التي ذكرها الصوفية لمصطلح الاعتصام.

وقد وجدنا في أحاديث السنة المشرفة ما يدل على هذه المعاني أيضًا:

فعن سفيان بن عبدالله الثقفي ـ رضي الله عنه ـ قال قلت يا رسول الله حدثني بأمر اعتصم به قال: قل آمنت بالله ثم استقم] [٤].

وقال ﷺ: [تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إذا اعتصمتم به كتاب الله][٥].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا .... الحديث][٦].

وواضح من هذه الأحاديث الشريفة أن الاعتصام هو الاستمساك واللجوء إلى الله أو إلى كتابه أو إلى دينه عمومًا طلبًا للنجاة.

---

(١) تأويلات أهل السنة جـ٣ صـ٤٠٠ وراجع تفسير البيضاوي جـ٢ صـ١٠٥ .

(٢) تفسير السعدي صـ٢١١ .

(٣) السمعاني: تفسير القرآن جـ١ صـ٤٩٥ .

(٤) هذا الحديث رواه الترمذي في سننه باب ما جاء في حفظ اللسان رقم ٢٤١٠ جـ٤ صـ١٨٥ .

(٥) رواه مسلم في صحيحه كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ جـ٢ صـ٨٨٦ رقم ١٢١٨ .

(٦) حديث صحيح رواه الإمام مسلم في صحيحه رقم ١٧١٥ .

٥ - **مصطلح التفويض من منظور لغـوي**: (الفاء والواو والضاد أصل صحيح يدل على اتكال في الأمر على آخر ورده عليه ثم يُفرَّع فيرد إليه ما يشبهه، من ذلك فوض إليه أمره إذا رَدّه مثل ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾[1].

ويقول ابن منظور: (فوض الأمر إليه: صيّره إليه وجعله الحاكم فيه)[2].

مصطلح التفويض من منظور شرعي: ورد التفويض في القرآن الكريم على لسان مؤمن آل فرعون حين دعا قومه إلى الإيمان بنبي الله موسى عليه السلام فتوعدوه بالقتل وهددوه، فلجأ إلى الله وحده ليحفظه من شرهم، قال تعالى: ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾[3].

قال الإمام الماتريدي: (أفوض أمري إلى الله أي أتوكل عليه ليحفظني ويدفع عني شركم وما تقصدون بي، وقيل أفوض أمري إلى الله أي عليه أتوكل وأَكِلُ في جميع الأمور من الخيرات والشرور وهو الكافي لذلك، وقيل: معناه: إظهار الحاجة إليه ـ تعالى ـ والمؤمن أبدًا يكون مظهِرًا للحاجة إلى الله ـ تعالى ـ في كل وقت وكل ساعة) [4].

---

(١) مقاييس اللغة جـ٤ صـ٤٦٠ .

(٢) لسان العرب جـ٧ صـ٢١٠ .

(٣) سورة غافر آية ٤٤ .

(٤) تأويلات أهل السنة جـ٩ صـ٣٣ .

ويقـول صـاحب روح المعـاني: (حقيقـة التفـويض تعطيـل الإرادة فـي تدبير الله ـ تعالى ـ وكمال التفويض أن لا يرى لنفسه ولا للخلق جميعًا قدرة على النفع والضر) [1].

وكذلك ورد التفويض في السنة النبوية في دعاء النبي ﷺ [اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، وخليت وجهي إليك، لا ملجأ منك إلا إليك][2].

قال ابن حجر: (معنى قوله وفوضت أمري إليك أي أن أموره الخارجة والداخلة مفوضة إليه، لا مدبر لها غيره، فهو يلتجئ إليه مما يضره ويؤذيه من الأسباب كلها)[3].

ويقـول الكلابـاذي: (فوضت أمري إليك: هو التوكل عليه رغبة إليه دون ما سواه من ملاذ النفس ومرافقها؛ لأن من سلم نفسه وفوض أمره فمطالبته حظوظ نفسه، واتساق أموره مما لا يعنيه، إذ ليس ذلك له، فهذا عبد لا يرى غير ربه، ولا يطالع غير سيده، ولا يراقب إلا مولاه)[4].

وهكذا اتضح إمامنا أن هناك موافقة تامة بين استعمال الصوفية لمصطلحات تلك المرحلة وبين الاستعمالين اللغوي والشرعي لها .

---

(١) روح المعاني جـ٨ صـ١٨٨ .

(٢) رواه الترمذي في المستدرك على الصحيحين كتاب الدعاء والتكبير جـ٢ صـ١٨٧ رقم ١٩٣٣ .

(٣) ابن حجر: فتح الباري جـ١١ صـ١١١ .

(٤) الكلاباذي: بحر الفوائد صـ١٨٦ .

خاتمة

بعد هذه الجولة التي طوفنا خلالها في ربوع المصطلحات الصوفية يمكننا استخلاص بعض النتائج التي يبدو أهمها فيما يلي:

١ – التصوف من العلوم الإسلامية التي ظهرت في مرحلة مبكرة جدًا من عمر الإسلام وقد تميز هذا العلم بمجموعة ضخمة من المصطلحات الخاصة به.

٢ – اتسم المصطلح الصوفي بعدة سمات وخصائص أهمها الاعتماد على القرآن والسنة وصحيح اللغة العربية مما جعله أقرب أنواع مصطلحات العلوم إلى مصادر الإسلام الأصلية.

٣ – كذلك اتسم المصطلح الصوفي بالكثرة والاستيعاب لتشمل كل ما يدور بنفس الصوفي وما يجول بخاطره من معان.

٤ – والمصطلح الصوفي بعد ذلك مصطلح سهل الفهم يسير الاستيعاب في غالبه الأعم.

٥ – عبر الصوفية بمصطلحاتهم الخاصة عن جميع مراحل الخلق، ما قبل الخلق وما بعد الخلق وعن كيفية التدبير والعناية بالمخلوقات عامة وبالسالك المريد خاصة، وقد وجدنا في كل مرحلة من تلك المراحل مجموعة هائلة من المصطلحات التي أبانت بيانا تامًا عن مقاصد الصوفية في كل مرحلة.

٦ – لاحظنا توافقًا تامًا بين استعمال الصوفية لمصطلحاتهم وبين ورودها في اللغة وكذلك القرآن والسنة.

٧ - في معظم الأحيان وجدنا أن الصوفية ينقلون اللفظ من القرآن والسنة مباشرة ليصير مصطلحًا خاصًا بهم مستعملاً في الميدان الصوفي٠

٨ - وقد أضفى الصوفية على مصطلحاتهم صبغة شرعية خالصة حينما كانوا يردون كثيرًا من المصطلحات المشهورة لديهم إلى مصدرها من الآية أو الحديث حينما كانوا يقولون وهذا المصطلح هو الوارد في آية كذا أو هو المقصود من حديث كذا٠

هذا، وقد بذلت قصارى جهدي في فهم ألفاظ الصوفية ومصطلحاتهم، والاعتماد في ذلك على مصادرهم الأصلية ثم الغوص في بطون المعاجم اللغوية لتفصح لنا عن مدى قرب المصطلح الصوفي من صحيح اللغة وفصيحها ثم جعلنا الشرع مهيمنًا على أقوال الصوفية ومعانيها اللغوية٠

فما كان من توفيق وصواب فهو من الله وحده، وما كان من خلل أو خطأ فهو من نفسي ومن الشيطان، ولا يخف أن هذا عمل بشري لابد وأن يعتريه شيء من القصور٠

المصادر والمراجع

ـ حرف الألف ـ

١ – أساس البلاغة: الزمخشري ـ تحقيق محمود شاكر ـ مطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٩٩١م٠

٢ – أسباب النزول ـ الواحدي ـ تحقيق كمال بسيوني ـ الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ ـ دار الكتب العلمية٠

٣ – الاعتصام ـ أبوإسحاق الشاطبي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٩م٠

٤ – الإنسان الكامل في معرفة الأواخر ـ الجيلي ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت٠

٥ – أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ البيضاوي ـ الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ ـ دار إحياء التراث العربي٠

ـ حرف الباء ـ

٦ – بحر الفوائد ـ الكلاباذي ـ تحقيق محمد حسن إسماعيل ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت٠

٧ – البحر المحيط في التفسير ـ أبوحيان الأندلسي ـ تحقيق جماعة من العلماء ـ الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت٠

٨ – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ـ ابن عجيبة الحسني ـ تحقيق أحمد عبدالله القرشي ـ دار الكتب العلمية ـ سنة ١٤١٩هـ٠

٩ – بصـائر ذوي التمييـز فـي لطـائف الكتـاب العزيـز ـ الفيروزآبـادي ـ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ بدون تاريخ٠

ـ حرف التاء ـ

١٠ – تاج العروس ـ الزبيدي ـ دار الهداية ـ بدون تاريخ٠

١١ – تأويلات أهل السنة ـ الماتريدي ـ تحقيق مجدي باسلوم ـ الطبعة الأولى ـ سنة ٢٠٠٥م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت٠

١٢ – تأويل مختلف الحديث ـ ابن قتيبة ـ تحقيق محمد زهري النجار ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢م ـ دار الجيل٠

١٣ – تحفة الأحوذي ـ المباركفوري ـ دار الكتب العلمية بدون تاريخ٠

١٤ – التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة د/ عبدالله الشاذلي ـ دار الهداية ـ بدون تاريخ٠

١٥ – التعريفات ـ محمد الجرجاني ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣م ـ دار الكتب العلمية ـ لبنان٠

١٦ – تفسير أسماء الله الحسنى ـ أبوإسحاق الزجاج ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤م ـ دار الثقافة العربية ـ دمشق٠

١٧ – تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ تحقيق سامي محمد سلامة ـ دار طيبة للنشر ـ بدون تاريخ٠

١٨ – تفسـير المراغـي ـ الطبعـة الأولـى سـنة ١٩٤٦م ـ مكتبـة البـابي الحلبي٠

١٩ – تهذيب اللغة ـ الأزهري ـ تحقيق محمد عوض ـ الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١م ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت٠

ـ حرف الجيم ـ

٢٠ – جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وكلمات الصوفية ـ النقشبندي ـ تحقيق/ طه عبدالرؤوف سعد ـ الطبعة الأولى سنة ٢٠١٥م ـ المكتبة الأزهرية للتراث٠

٢١ – جامع البيان في تأويل القرآن ـ الطبري ـ تحقيق أحمد شاكر ـ الطبعة الأولى ـ سنة ٢٠٠٠م ـ مؤسسة الرسالة٠

٢٢ – الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٤م ـ دار الكتب بالقاهرة٠

٢٣ – جمهرة اللغة ـ ابن دريد ـ تحقيق رمزي بعلبكي ـ الطبعة الأولى ـ سنة ١٩٨٧م ـ دار العلم للملايين ـ بيروت٠

ـ حرف الحاء ـ

٢٤ – الحجة في القراءات السبع ـ ابن خالويه ـ الطبعة الرابعة ـ سنة ١٤٠١هـ ـ دار الشروق ـ بيروت٠

ـ حرف الدال ـ

٢٥ – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ـ السمين الحلبي ـ تحقيق د/ أحمد الخراط ـ دار القلم ـ دمشق٠

ـ حرف الراء ـ

٢٦ – رسائل ابن عربي: محيى الدين بن عربي ـ تحقيق سعيد عبدالفتاح ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ٢٠١٦م٠

٢٧ - الرسالة القشيري: القشيري تحقيق د/ عبدالحليم محمود ـ د/محمود بن الشريف ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ بدون تاريخ٠

٢٨ - رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال ـ القاشاني ـ تحقيق سعيد عبدالفتاح ـ المكتبة الأزهرية للتراث ـ ١٩٩٥م٠

٢٩ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ الآلوسي ـ تحقيق علي عبدالباري عطية ـ دار الكتب العلمية ـ بدون تاريخ٠

ـ حرف الزاي ـ

٣٠ - زهرة التفاسير ـ الشيخ محمد أبوزهرة ـ دار الفكر العربي ـ بدون تاريخ٠

٣١ - زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي ـ تحقيق عبدالرازق المهدي ـ الطبعة الأولى ـ سنة ١٤٢٢هـ ـ دار الكتاب العربي٠

ـ حرف الشين ـ

٣٢ - شرح التائية الكبرى لابن الفارض ـ عفيف الدين التلمساني ـ تحقيق د/ جوزيني سكاتولين ـ دار الكتب القومية ـ القاهرة ـ سنة ٢٠١٦م٠

ـ حرف الصاد ـ

٣٣ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ـ الجوهري ـ الطبعة الرابعة ـ سنة ١٤٠٧هـ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت٠

ـ حرف الغين ـ

٣٤ – غريب القرآن ـ ابن قتيبة ـ تحقيق أحمد صقر ـ دار الكتب العلمية ـ سنة ١٩٧٨م٠

ـ حرف الفاء ـ

٣٥ – الفروق اللغوية ـ أبوهلال العسكري ـ تحقيق محمد إبراهيم سليم ـ دار العلم والثقافة ـ القاهرة ـ بدون تاريخ٠

ـ حرف القاف ـ

٣٦ – القاموس المحيط ـ الفيروزآبادي ـ مؤسسة الرسالة ـ بدون تاريخ٠

ـ حرف الكاف ـ

٣٧ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ـ الزمخشري ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٧هـ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت٠

ـ حرف اللام ـ

٣٨ – اللباب في علوم الكتاب ـ ابن عادل الحنبلي ـ تحقيق علي أحمد معوض ـ الطبعة الأولى ١٩٩٨م ـ دار الكتب العلمية٠

٣٩ – لسان العرب ـ ابن منظور ـ الطبعة الثالثة ـ سنة ١٤١٤هـ ـ دار صادر ـ بيروت٠

٤٠ – لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام: عبدالرازق القاشاني ـ تحقيق سعيد عبدالفتاح ـ الطبعة الثالثة ـ سنة ٢٠٠٧م ـ الهيئة العامة للكتاب٠

ـ حرف الميم ـ

٤١ – محاسن التأويل ـ جمال الدين القاسمي ـ الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت٠

٤٢ – المحرر الوجيز ـ ابن عطية ـ الطبعة الأولى ـ سنة ١٤٢٢هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٣ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ـ الطبعة الأولى ـ سنة ٢٠٠٢م ـ دار الفكر ـ بيروت.

٤٤ – المصباح المنير ـ الفيومي ـ المكتبة العلمية ـ بدون تاريخ.

٤٥ – المصطلح الأصولي ومشكلة المفاهيم ـ د. علي جمعة ـ الطبعة الأولى ـ سنة ١٩٩٦م ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٤٦ – معجم الفروق اللغوية ـ أبوهلال العسكري ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٢هـ ـ مؤسسة النشر الإسلامي.

٤٧ – معجم مقاييس اللغة ـ ابن فارس ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٩م ـ دار الفكر.

٤٨ – معراج التشوف إلى حقائق التصوف ـ ابن عجيبة.

٤٩ – المغرب في ترتيب المعرب: برهان الدين المطرزي ـ دار الكتاب العربي ـ بدون تاريخ.

٥٠ – مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤٢٠هـ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٥١ – المفصل في صنعة الإعراب ـ الزمخشري ـ تحقيق علي بوملحم ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٣م ـ مكتبة الهلال ـ بيروت.

٥٢ – المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ـ أبوحامد الغزالي ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٧هـ ـ دار الجفان.

٥٣ – موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي ــ د/ رفيق العجم ــ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٩م ـ مكتبة لبنان٠

ـ حرف النون ـ

٥٤ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ـ البقاعي ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٥م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت٠

٥٥ – النكت والعيون ـ الماوردي ـ دار الكتب العلمية ـ بدون تاريخ٠

٥٦ – النهاية في غريب الحديث والأثر ـ ابن الأثير ـ تحقيق طاهر أحمد الزاوي ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ المكتبة العلمية ـ بيروت٠

فهرس